جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

النزعة المنطقية وأثرها في تقعيد علم المعاني

الدكتور
عزمي فرحات عبد البديع رضوان
أستاذ مساعد البلاغة والنقد جامعة الأزهر

العدد الرابع والعشرون
للعام ١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م
الجزء التاسع
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٠م
الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

النزعة المنطقية وأثرها في تقعيد علم المعاني

عزمي فرحات عبد البديع رضوان

قسم البلاغة والنقد جامعة الأزهر ـ جمهورية مصر العربية .

البريد الإلكتروني: Azmyfrhat@yahoo.com

الملخص

لقد أردت للبحث أن يكون لحمة واحدة، كما أنه يعالج قضية ذات بعد واحد، فلم أرد أن أشغل القارئ الكريم بالعناوين والتفريعات الكثيرة إلا ما دعت إليه الضرورة؛ ليبقى الذهن منصرفا إلى الفكرة ذاتها، وفي سبيل الوصول إلى ما نبتغيه من وراء هذه الدراسة، جاءت معالجة أهم موضوعات علم المعاني على النحو الآتي:

١-الفصاحة والبلاغة.

٢-التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة.

٣-الإسناد.

٤-الجملة الخبرية بين جمود المنطق ورحابة الاستعمال.

٥-أحوال الإسناد (المسند إليه – المسند).

٦-القصر.

٧-الإنشاء.

٨-الإيجاز والإطناب.

٩-الفصل والوصل.

ثم كانت خاتمة الدراسة، وفيها أهم النتائج التي أسفرت عنها، وما تطمح إليه من توسيع دائرة البحث البلاغي.

الكلمات المفتاحية : النزعة المنطقية ، تقعيد علم المعاني ، علم المعاني ، القصر. الإنشاء ، الإيجاز والإطناب ، الفصل والوصل ، المسند إليه ، المسند .

ISSN 2356-9050 الترقيم الدولي
ISSN 2636 - 316X الترقيم الدولي الإلكتروني

حولية كلية اللغة العربية بجرجا
مجلة علمية محكمة

Logical tendency and its effect on the retirement of meanings

Azmi Farhat Abdel-Badi Radwan
Department of Rhetoric and Criticism, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Email: Azmyfrhat@yahoo.com

Abstract

I wanted the research to be a one-size-fits-all, as it deals with a one-dimensional issue, so I did not want to occupy the honorable reader with the many headings and ramifications except when necessary. In order for the mind to remain devoted to the idea itself, and in order to reach what we want from behind this study, the most important topics of semantic science were addressed as follows:

1. **Eloquence and rhetoric.**
2. **The triple division of rhetoric sciences.**
3. **Attribution.**
4. **The informative sentence between the rigidity of logic and the spaciousness of use.**
5. **Cases of chain of transmission (the chain of transmission to it - the chain of transmission) .**
6. **Minors.**
7. **Creation.**
8. **brevity and redundancy.**
9. **Separation and connection.**

Then came the conclusion of the study, and it included the most important results that resulted from it, and the aspiration to expand the circle of rhetorical research.

Keywords : logical inclination, complexity of semantics, semantics, minors. Creation, brevity and redundancy, separation and connection, ascribed to it, predicate.

بسم الله الرحمن الرحيم

على سبيل التقديم

البلاغة فنّ يستعصي على الضبط الصارم، ويجافي المنطق الخالص، وهو علم يقترب من علوم الجمال، ويتقاطع مع علم النفس والاجتماع، ولا يخالجني شكّ أنّ البلاغة في مرحلة التقعيد فات منها الشيء الكثير، بل هو الباب الضائع الذي يحوم حوله أهل الصناعة ولم يدركوه، وأحسوا به ولم يهتدوا إليه.

والبلاغة العربية تجاوز حدود اللفظ والمعنى، وتتخطى مفهوم النظم والتأليف إلى تجليات الخطاب بوجه عام في صوره وآفاقه وأنساقه ومقاصده المختلفة، ولا يمكن للبلاغة أن تُختزل في تشبيه واستعارة، أو تأليف وعبارة، بل إنّ البلاغة هي الطريق الصحيح، والسبيل الأمثل إلى قراءة اللغة في مستوياتها واستعمالاتها وتداوليتها بين المتخاطبِين بها؛ لتؤدي وظائفها إفهاما وتفهيما وبيانا وتبيينا وإمتاعا وإشباعا.

علم البلاغة علمٌ قادرٌ على إزاحة الستار عن كوامن النفس البشرية، بكل ما تحمله من قيم وأفكار وتصوّرات، وما استتر في الضمير وتوارى خلف تراكمات اللفظ والعبارة، وما زلتُ أرى أنّ البلاغة هي الخلاص الحتمي لهذه الأمّة ونجاتها من كبوتها إذا فُهمت حقيقتها، وتخلّصت من أثقالها وأغلالها.

البلاغة هي الآلة التي تكشف عن معادن الخطابات المتنوعة على اختلاف ألوانها، من سياسية واجتماعية وحضارية وتكشف زيف المزيّفين ومراوغة المراوغين، الذين يحتالون على الناس بالسفسطة والمغالاة في المنطق، كما تلوح البلاغة في الكلمة الهادفة، والرسالة الهادية إلى فتح مغاليق القلوب، والنفاذ إلى شغافها مهما أُحكمت أقفالها.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

تلك مقالة عرضت وطرأت بعد طول نظر في تدريس البلاغة العربية، وقراءة أبوابها مرات عديدة حتى لاح لي منها وجوه كثيرة مما جال في الخاطر زمنا ليس بالقصير، وأجد في نفسي رغبة جامحة تطمح إلى الإبحار في أعماق البلاغة والنوازع تُنازعني أن فيها وجوها مضمرة قضى عليها التقعيد وأزهقَ روحها، وهي وجوه تتعلق أساسا بالذوق والفن والروح حتى استقر أمرها على حالة من الجمود والتخلف، وذهاب الرونق والجمال.

والبلاغة بصورتها الراهنة ليست هي البلاغة التي يرتضيها الذوق، ولا تستحق منا أن ننصرها أو ننتصر لها مادامت كذلك وغايتنا أن تعاود البلاغة سيرتها الأولى كفنّ من أرقى الفنون الإنسانية، ترتكز على دعامة الذوق أكثر من ارتكازها على الفلسفة والإغراق في الجدل والمنطق، وتعين على مصاحبة إبداع المبدعين في شعرهم وخواطرهم ونوازعهم ومشاعرهم، كما تسهم في قراءة أحوال الخطاب، وصنوف البيان التي تَصدر عن أرباب الفكر والأدب، وما تنتجه قرائح العقول الواعية التي تعمل على تشكيل المعرفة، وبناء الفكر، وتشييد العمران والحضارة.

علم البلاغة في حقيقته علم شريف المحلّ رفيع القدْر، يتسع لمعالجة ودراسة طرائق الإبانة في جميع صورها ومسالكها، ويهتم بالنظر في فنون التواصل والخطاب، وكل ما هو قائم على المقصدية والإقناع والتوجيه والانفعال والتأثر والتأثير.

استوقفني تعريف الإمام الرمّاني للبلاغة، وقد بيّنَ أنها لا تنحصر في اللفظ وحده، ولا في المعنى وحده، إنما البلاغة كما يقول: "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ" (١) ولو وقف البلاغيون المتأخرون

(١) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ط٥ دار المعارف ص ٧٦/٧٥.

طويلا أمام هذا المفهوم للبلاغة لوجدوا فيه البغية الحقيقية لما نبحث عنه، ونودّ أن يكون له رواج وحضور في مجالسنا ومعاهدنا العلمية.

مفهوم البلاغة عند الرمّاني مفهوم فنّي تداوليّ، قائم على اللغة الحية المستعملة المتجدّدة، تلك التي تسري مياه الحياة في أوصالها (إيصال المعنى إلى القلب) وليس مجرّد وصوله إلى حاسة من حواس الإدراك الشائعة، وبذلك تستبين للبلاغة خصوصيتها من جهة النفاذ والتأثير، فلم تكن البلاغة في أوّل عهدها صناعة منطقية جامدة بحال من الأحوال، وقوله (في أحسن صورة من اللفظ) عبارة بليغة، تشير إلى عناية البلاغة بالصياغة، كأساس مكين في عملية الإبداع والتواصل والبلاغ والتبليغ.

إنّ البلاغة التي تطمح النفوس إليها، لا تبحث الشكل الخارجيّ للخطاب اللغوي في صورته الطبيعية المألوفة، إنما تبحثه في أبعاده الانفعالية والنفسية والوجدانية التي تعود بالنفع على الحياة والأحياء، كما أنّ البلاغة ليست مجرّد زينة يزيّن بها الكلام، والتحسين اللفظي في البلاغة لم يكن مقصودا لذاته أبدا، بقدر ما هو وسيلة لبلوغ المعني وانفعال القلب وحمل النفوس على الخضوع والامتثال والأريحية، والبلاغة بهذا المفهوم الذي يقع في خاطرنا لا يحدها كتاب فتُحفظ، ولا تُحيط بها قاعدة فتُحصَر.

وإن تعجب فعجب لمن وقفوا بالبلاغة عند حدودٍ مرسومة، وأبواب محفوظة لا تبتعد كثيرا عن إطار اللفظ والمعنى، ظنا منهم أنها لا تتجاوز سياجهما، ولا تعدو هذه الثنائية القاصرة.

ظلت النظرية البلاغية هاجسا تتوارثه الأجيال حتى جاء عبد القاهر الجرجاني –وهو الخبير بأسرار هذه اللغة ودقائقها، يحفظ نظومها ورسومها– ففتح في العلم طريقا غير معبّد من قبل، وتعامل مع البيان باعتباره انفعالا نفسيا، ينقل حركة النفس وما يمور في أعماق الوجدان، وتعامل الشيخ مع اللغة – حال الاستعمال – على أنها كائن حيّ، يحتاج إلى

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ترويض وإيناس، وهذه أمور لا يتعاطاها كل الناس، ولا يهتدي إليها إلا القليل من ذوي العقول والأفهام، وممن راض نفسه في هذا الشأن، وقد رُزقَ الشيخ ذوقا عاليا وقريحة وقادة، مكنته من إدراك الفروق والمزايا بين الكلام.

فكم بين اللغة وهي راقدة في المعجم العربي وبين استعمالها وتداولها بين الناس من فروق ومسافات؟! وكم بين اللغة المكتوبة والشفاهية أيضا من مسافات؟! وكم بين الخطاب الإبداعي من مسافات حين يكون انفعالا شعريا، وحين يكون خطابا نثريا مُحررا من قيود الوزن والقافية؟!

وإذا كان الخطاب نفسه ليس نوعا واحدا وإنما خطابات مختلفة، كذلك البلاغة ليست بلاغة واحدة ولكنها بلاغات، وكما تتحقق في النطق والبيان تكون في الصمت والسكوت، حين يكون الصمت إرادة ووعيا، وكما تكون البلاغة عبارة منظومة تكون كذلك إشارة مقصودة.

وفرق كبير بين اللغة إذا كانت خطابا علميا مجردا لذاته، وإذا كانت خطابا إبداعيا نابعا من الشعور والوجدان، وكذلك الفرق هائل بين خطاب موجّه لفئة مخصوصة بعينها، وخطاب آخر قُصد به أن يكون عاما صالحا لأن يخاطبَ العقلَ الجمعيّ، بغض النظر عن اللون أو العرق أو الدين.

والمقرر عند أهل العلم والنظر أن "البلاغة ضروب فمنها بلاغة الشعر، ومنها بلاغة الخطابة، ومنها بلاغة النثر، ومنها بلاغة المثَل، ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التأويل"(١)

ولا يمكن للبلاغة أن تقتصر على النظر في لون واحد أو فن واحد من فنون الإبداع، بل يمكن لها أن تعالج جميع صور الخطاب بأشكاله وأنماطه المتعددة، رواية وقصة ومسرحيّة وخطبة في معهد أو جامعة، وفي محفل من المحافل على الصعيدين المحلّي والعالَميّ.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ج٢ ص١٤٠/١٤١.

وأيضا هناك نوع من الإبداع مختلف هو إبداع الفن الخالص، أي الفن كممارسة جمالية خالصة، لا تنفك عن الشعور واللذة والإمتاع، ولا تراعي غير المؤثرات النفسية والتخيلات الوجدانية التي لا تخضع لمنطق صريح، ولا تهدف إلى مقصدية بعينها، وهذا الوجه من الإبداع خاصة من خصوصيات الإبداع البشري على وجه التميّز والتفرّد، كما أجد ملامحه قديما في معلقات الشعر الجاهليّ، وحديثا في شعر ناجي ومحمود حسن إسماعيل وإيليا أبو ماضي، ومن سلك مسالكهم.

وغالبا ما تكون خصوصية اللغة عند هؤلاء وأضرابهم، لغة فنية لا تُكتب بالطرائق الطبيعية المعهودة المألوفة، بل تكون الجملة اللغوية ذات خصوصية معينة، على مستوى النظْم والتركيب، وتشكيل الصورة الفنية، وشحنها بوسائل البديع والتأثير.

فالبلاغة العربية ذات اهتمام باللغة الفنية المشحونة باللطائف والأسرار، وقراءتها في إطار هذه الملابسات والدواعي والأغراض، ومن ثَمَّ لا يقف أهلها طويلا أمام اللغة المألوفة، والتراكيب المثالية المترسّمة لخطى النحو وأصوله وقواعده، سوى ما يميزون به بين اللغة في قوالبها النمطية المعهودة، وبينها في وعائها الفنيّ الدالّ المثير، وهو محل نظرهم، ومطمح غاياتهم، وإذا كانت التراكيب الصحيحة الدالة على أصل المعنى هو ما يبتغيه النحاة، فإن البلاغيين والنقاد "لا يلتفتون إلى ما يحرص عليه النحاة من إبراز الكلام في صورة مثالية، تلتزم بالقواعد في صرامة ودقّة، ولكن اهتمامهم منصرف في المقام الأوّل إلى ظواهر مخالفة النمط التي تحفل بها العبارة الأدبية" (١)

(١) نظرية اللغة في النقد العربي د/عبد الحكيم راضي ص٢١٠ المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ط٣/٢٠٠٣م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقد أشار المؤذني أحد شراح المفتاح إلى أن "عمل النحوي يدور في فلك الصحّة والإفادة وعمل البلاغيّ يتجاوز الإفادة إلى المطابقة لمقتضى الحال"(١) والبحث في جهات المطابقة عمل كبير، لا تحيط به ولا توفيه حقه مجموعة محدودة من القواعد والأصول.

والنص الإبداعي عموما قد يعمد فيه قائله إلى ترك مساحات وفراغات، ثقة في عقل القارئ الجادّ (المتلقي) الذي يهتم بالخطاب، ويتفاعل به ويصل معه إلى درجة من الوعي تسمح بمليء هذه الفراغات، فكما تراعي البلاغة حاجة المتكلم وخصوصياته، تراعي كذلك حالة المتلقي، بنوازعه وتطلعاته.

والمعين الذي لا ينضب في مدّ جسور البلاغة، هم الشعراء والخطباء والكتّاب والأدباء المطبوعون بفطرتهم على الإبانة، فهم الذين يملكون من الأفكار ما لا يملك غيرهم، ويهتدون إلى الأساليب التي لا يهتدي إليها سواهم، وبمثل هؤلاء تعلوا بهم البلاغة وترتقي، وتُروى بماء عذب غير آسن.

وإذا كان الإبداع الأدبي هو الذي يساعد على اكتشاف الإنسانية بتصوراتها الواعية ورؤاها العميقة، فلابد من مراعاة السياق الذي أُنتج فيه الأدب، فمنه السياق الاجتماعي، والسياق الثقافي، والسياق المقامي، ومنه السياق القريب والآنيّ والبعيد، وكلها سياقات "على قدر كبير من الأهمية في الدراسات اللغويّة وقد أكّد هذه الأهمّية الاتجاه الوظيفي" (٢) ولكل من هذه السياقات بلاغته وتلقّيه، في إطار من هذه الملابسات والخصوصيات.

---

(١) شرح المفتاح للمؤذني (مخطوط) جاري العمل على تحقيقه د. هشام البلتاجي ويقارن بما ذكره الدسوقي أحد شراح التلخيص ينظر شروح التلخيص ج١ ص١٣٤/١٣٥. ط دار الكتب العلمية/بيروت/لبنان.

(٢) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصّيّة ص٦٧.

وكما ذكرتُ فالخطاب خطابات، والبلاغة أيضا بلاغات، والخطاب الأدبي هو الخطاب الفنيّ المراوغ، وهذا من أسرار سحره ومزايا جماله، والمعجم التداولي للجملة في هذا الضرب من الخطاب يتسم بالإيحاء، ويكتنفه شيء من الغموض وتشفّه سيماء الضبابية، وتُكسَر فيه نمطية الجملة؛ لتأتي دلالتها على نحو غير متوقع دائما؛ مما يحدث أريحيّة، ومتعة نفسية لا يستشعر لذتها إلا المهَرة المتمرّسون بطول النظر في الفنون المختلفة، ومراجعة النصوص العالية من الشعر والنثر.

والنقاد الذين أعنيهم هم نقاد البيان الذين يُحسنون التلقّي، وينفذُون إلى الرؤية الحقيقية للنص، من أجل قراءة واعية خلاّقة وطموحة، تتحسّس خصوصية هذه اللغة في مفرداتها، وأصواتها، وبديع تراكيبها، وأنساقها، والملابسات الأخرى التي تصاحب صناعة الإبداع المشحون بلطائف الجمال والفنّ، وعلى وجه الإجمال فإن الممارسة النقدية التي أقصدها هي التي لا تكتفي بقراءة النص على مستوى البنية اللغويّة وحدها، دون مراعاة كل ما يحف بمنتج الخطاب، ويحيط بملابساته.

ولقد كان علماؤنا القدامى على وعي تام بالفروق بين الخطابات وتنوعها، وقد ألمع إلى شيء من ذلك صاحب قانون البلاغة حين قال "ومن نعوت إشراك اللفظ والمعنى التمثيل، وهو أن يراد الإشارة على معنى فتوضع ألفاظ تدل على معنى آخر، وذلك المعنى وتلك الألفاظ مثال للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه، وأكثر الاستعمال لهذا المذهب – وهذا هو المهم في عبارة الرجل – إنما هو في البلاغة الشعرية، وقد استعملها الكتاب في رسائلهم، والخطباء في خطبهم فيكون ذلك مما يحسن موقعه، ويبين في البلاغة موضعه" (١)

(١) ينظر قانون البلاغة ص ١١٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فقوله (إنما هو في البلاغة الشعرية) فيه إشارة دقيقة، ودلالة بينة على وجود فروق بين الخطاب الشعري وغيره من الخطابات المختلفة، والمعاني الشعرية غيرها في سواها؛ لأنّ "المعنى في الشعر منوط دائما بقصد الشاعر الذي لا تبثه الإشارات اللغوية للقراءة المباشرة، ولا يسلم قياده للقارئ إلا بعد ضرب من الصبر والتأويل" (١)

لكنّ الواقع الأليم الذي صادف البلاغة العربية وقوعها في براثن المنطق والجدل، فاستحالت ببحوثها الفنية، ودقائقها الفكرية إلى ضروب من هوس التقسيم، وشتات عجيب لمباحثها المتنوعة، وقد لاقت حتفها في مدرسة الرازي والسكاكي والخطيب والتفتازاني، ومن تلاهم ودار في فلكهم من الشراح والملخّصين، فأبعد أهلها النجعة في إخضاعهم البلاغة لحدود المنطق ورسومه، وأوغلوا في العقلية والسفسطة إلى حدّ بعيد، حتى أضحت البلاغة بين أيديهم صناعة لفظية مجرّدة لا يعنيها مظاهر الإبداع الفني في النص، بقدر حرصها على استيفاء الشواهد ومطابقتها من جهة العقل أولا وقبل كل شيء، وبُنيت القواعد بناء عقليا خالصا، بعيدا عن القيم الفنية والمثيرات الوجدانية المبثوثة في تضاعيف النصّ؛ مما أدى إلى الاجتزاء دائما بالبيت الواحد والاكتفاء ببعضه أحيانا، وهذا إن جاز في علم من علوم العربية على وجه التسامح فإنه لا يليق بالبلاغة التي هي فنّ وذوق، وخروج ممتع عما هو مألوف ومتوقّع في بناء الأساليب، والتراكيب، والصور الفنيّة، وشتان بين البلاغة حين كانت القوس في يد باريها، وبينها حين تعاطاها رجال لم تكن العربية معدنهم، ولا الفصاحة ديدنهم.

---

(١) ينظر تأويل الشعر قراءة أدبية في فكرنا النحوي د/ مصطفى السعدني ص٧ منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٢م.

وليس معنى كلامنا أن نسقط عن الفضلاء فضلهم بقدر بيان حقيقة لا يغفل المهتمون بالفكر والوعي أثرها السلْبيّ على البحث البلاغي، منذ حدود القرن السادس الهجري تقريبا، حتى عصرنا الراهن، حين تفلتت منه بحوث أصيلة مكينة فأمست البلاغة يبابا بلقعا لا تؤتي ثمارها المرجوة كما كانت من قبل، تؤتي أكلها كل حين في عهودها، وسيرتها الأولى.

وقد أردت للبحث أن يكون لحمة واحدة، كما أنه يعالج قضية ذات بعد واحد، فلم أرد أن أشغل القارئ الكريم بالعناوين والتفريعات الكثيرة إلا ما دعت إليه الضرورة؛ ليبقى الذهن منصرفا إلى الفكرة ذاتها، وفي سبيل الوصول إلى ما نبتغيه من وراء هذه الدراسة، جاءت معالجة أهم موضوعات علم المعاني على النحو الآتي:

١-الفصاحة والبلاغة.

٢-التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة.

٣-الإسناد.

٤-الجملة الخبرية بين جمود المنطق ورحابة الاستعمال.

٥-أحوال الإسناد (المسند إليه – المسند).

٦-القصر. ٧-الإنشاء.

٨-الإيجاز والإطناب.

٩-الفصل والوصل.

ثم كانت خاتمة الدراسة، وفيها أهم النتائج التي أسفرت عنها، وما تطمح إليه من توسيع دائرة البحث البلاغي.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

(١)

الفصاحة والبلاغة

مصطلحان كبيران، يقوم عليهما ركن مكين من أركان الأدب، وعلم رئيس من علومه، هو ثمرة هذه اللغة الشريفة بلا منازع التي اختصها الله تعالى لغة لكتابه الحكيم؛ لتكون وعاء للمعاني الإلهية الجليلة المقصودة، بلاغا وإبلاغا، النافذة إلى القلوب حتما بإرادة وبغير إرادة، الحاملة على الإفهام والتفهيم والبيان والإبانة، وبهذين المصطلحين الكبيرين كان البحث دائما في مسائل البلاغة والأسلوب، وأثيرت حولهما الكثير من القضايا النقدية في التراث العربي العتيق.

وقد ذهب الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى أنّ "الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وكلّ ما شاكلها، مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض، من حيث نطقوا وتكلّموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يُعلموهم ما في أنفسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم" [(١)] وبهذا نرى الفصاحة عند عبد القاهر من سمات النظم والتأليف، فهي عبارة عن فضلٍ ومزيّةٍ في نظم الكلام وترتيبه على وجه ينبئ عن الأغراض والمقاصد، ويكشف ما استتر في حنايا النفس والضمائر، والفصاحة عنده في التراكيب دون المفردات، وبذلك تكون مرادفة للبلاغة.

فما الكيفية التي عولجت بها قواعد الفصاحة عند المتأخرين؟

في مدرسة التقعيد أحيلت الفصاحة إلى جملة صفات سلبية، تتعلق باللفظ إفراداً وتركيبا، فمن جهة اللفظ المفرد، سلامته من التنافر، ومخالفة القياس، والغرابة، وقد يزاد عليها الكراهة في السمع، وفي المركّب سلامته

---

(١) دلائل الإعجاز قرأه وعلق عليه محمود شاكر ص٤٣ مكتبة الخانجي ط٥ ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

أيضا من التنافر (تنافر الكلمات) والتعقيد (لفظا ومعنى) وضعف التأليف، بالإضافة إلى تتابع الإضافات، والتكرار عند بعضهم. (١)

من الواضح أن جملة هذه الصفات السلبية، لا يسلم منها الكلام، إلا بمراعاة مجموعة من علوم العربية، منها ما يتصل بعلم اللغة والمعاجم، كالتنافر والغرابة، ومنها ما يتصل بعلم النحو والصرف، كضعف التأليف، والتعقيد اللفظي، ومخالفة القياس، ومنها ما يتصل بعلم البيان والدلالة (دلالة اللفظ على المعنى وضوحا وخفاء)، كالتعقيد المعنوي، ومن المذهل في التصورات العقلية أن تُخْتزَل الفصاحة العربية المتعلقة باللفظ (مفردا ومركبا) في جملة هذه المعايير السلبية، ولو صِيغت بمقياس الإيجاب لكان أدق وأسلم؛ كيما تصبح الفصاحة تحقيقية مطلوبة لا سلبية ممقوتة، فنقول مثلا:

الفصاحة (إفرادا وتركيبا) هي العلم بقوانين اللغة، وأعرافها الطبيعية، من جهة الأصوات، وتلاؤم الحروف، وتجانس المفردات ومراعاة قانون التأليف والتركيب، وسلامة دلالة اللفظ على معناه.

على أن جملة هذه المقاييس لا تتعلق بمسألة الفصاحة وحدها، ولا بعلم البلاغة رأسا؛ لأن منها ما يرتبط بمراعاة قانون اللغة ذاته، فيكون الإخلال به إخلالا بالقانون اللغوي نفسه، كضعف التأليف (وهو عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة)، والتعقيد بنوعيه (اللفظي والمعنوي) فهذه الصفات السلبية لا مندوحة فيها.

وأما عن التنافر فلم يهتدوا فيه إلى ضابط دقيق يُحتكم إليه، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلا سوى الاهتداء بالذوق وحسب وبالتالي فالضابط نفسه ليس

---

(١) ينظر الإيضاح ص ١٨/١١ شرح د/ خفاجي مكتبة المعارف/ الرياض ط١ ١٤٢٦ه/ ٢٠٠٦م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

صارما مقنعا، فلا يمكن أن أقول مثلا إن اجتماع (الحاء والعين) في كلمة يجعلها متنافرة ثقيلة على ما ذهبوا إليه، ولا تتابع الإضافات في جملة كلام بالمبطل فصاحته دائما، وفي القرآن الكريم –وغيره من فصيح كلام العرب– من تتابع الإضافات الشيء الكثير، وهو في غاية الإعجاز والفصاحة، ومنه ما وقع مكررا، وتوالت فيه الأمثال –كما يقول اللغويون– كقوله تعالى (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) (١) فتوالت فيه الميم وتكررت بصورة واضحة، وهو من أبلغ البيان وأعلاه، ولم يقدح ذلك في فصاحته وبلاغته، وما بالك إذا كان اللفظ الذي تنافرت فيه الحروف وثقل على اللسان نطقه، هو الذي يعبر عن المعنى الذي قصده المتكلم ودُفع إليه دفعا، وخاصة في المعاني الشعرية التي تَستعصي على التقعيد والمنطق الصارم، ومن ذلك قول امرئ القيس المشهور في تصوير شَعْر امرأة يتغزّل بها: (٢)

غدائره مُستشزراتٌ إلى العلا تضلّ المدَارَى في مُثنّى ومُرسلِ

زعموا أن (مستشزرات) غير فصيحة؛ لقرب مخارج الحروف؛ مما أحدث صعوبة وثقلا في نطق الكلمة وجريانها على اللسان، وكأنهم حكموا عليها بمعزل عن النص والسياق، وقد مرّ هذا البيت على أرباب البلاغة في عصورها الأولى، فما عابه واحد منهم.

ونظرة البلاغيين المتأخرين على ما يظهر للدارس، لا تخرج عن حدود العقل والمنطق، وليس لنا أن ننفى التنافر عن بيت امرئ القيس المذكور، من جهة حروف الكلمة، وأصواتها، وتعثّر اللسان في نطقها، ولكننا نرفض أن يُحاكم الشعر بهذه الصرامة البعيدة عن الذوق والفن.

---

(١) سورة هود آية ٤٨.

(٢) ديوان امرئ القيس جمع حسن السندوبي ص١٧١ دار إحياء العلوم بيروت ط١ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

وقد سبق ناقد كبير هو الدكتور محمد النويهي فنبّه إلى أن البلاغيين " قد خانهم التوفيق؛ لأنهم لم ينتبهوا إلى أنّ المعنى والعاطفة قد يقتضيان هذا التنافر ويجعلانه أمرا لازما " (١).

وإلى "أنّ هذا التنافر لازمٌ لزوما فنيا مؤكدا؛ لأنه ينطبق على الصورة التي يريد الشاعر أن يرسمها لهذه الخصلات الكثيرة الكثيفة الثقيلة التي تتزاحم على رأس محبوبته وترتفع إلى أعلى، ويغيب بعض الشعر الكثيف تحتها من مفتول ظل على انتظامه وغير مفتول انطلق هنا وهناك، صورة غنية رائعة حاشدة زاخرة مزدحمة إذا أجدنا تصورها واستمعنا إلى (مستشزرات) أدركنا أنها كيف تقتضي هذا التنافر وبدأنا نستحليه ونتلذذ بتعثّر لساننا في النطق به، هو حقّا تنافر ولكن ما أقوى انسجامه مع الصورة المرسومة" (٢).

وليس من قصدنا وغايتنا أن نرفض جملة معايير الفصاحة على هَدْي من قواعد البلاغيين المتأخرين، بقدر ما يحملنا ذلك على مراجعة النظر لمثل هذه الأبواب الكبيرة في الدرس البلاغي، فلا نأخذها مأخذ القوانين الصارمة، التي تكون بمعزل عن الذوق، بما يتلاءم مع أحوال النص وغرضه ومقاماته، وارتباط الجانب الصوتيّ وجرْس الحروف بطبيعة المعنى ووضوحه وموقعه الفني في النفس.

كما أنّ مقياس الغرابة من جهة التحقيق نسبيّ إلى حد كبير على ما يبدو، وقد تكون الغرابة التي تخل بالفصاحة حقا هي الكلمات التي أهملها العرب الفصحاء ابتداءً (أي الألفاظ المهملة) ولم تجرِ على ألسنتهم استعمالا، فهذا هو المخل بالفصاحة وليس مطلق الغرابة؛ لأن المفردة قد تكون غريبة

---

(١) ينظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ج١ ص ٤٤/٤٥.
(٢) ينظر السابق نفسه.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

إلى حدّ ما باعتبار البعد الزمني لا أكثر، وإذا جاز ذلك في لغة الخطاب العام فلا يسلّم في لغة الشعر التي هي في حقيقتها انفعال نفسيّ، وتعبير وجدانيّ شعوري، وإحساس ذاتي باللغة كما يصورها ويؤلفها خيال الشاعر، على نحو ما يلوح له في عالمه الإبداعي الرحْب.

كما لم نهتد في كلامهم إلى مفهوم واضح لما اصطلحوا عليه بالتعقيد المعنويّ، وهو أمر يرتبط بدلالة اللفظ على المعنى، فقد تكون الدلالة على المعنى واضحة، وقد تكون خفيّة، ومثلوا له بقول الشاعر (١):

سَأطلبُ بُعد الدار عنكم لتقرُبوا وتَسكُبُ عيناىَ الدّموعَ لتجمُدا

اعتبروا دلالة (سكْب الدموع والعبرات) على الحزن والفراق دلالة واضحة سلسة، بخلاف دلالة (جمود العين) على السرور بالتلاقي ففيها لَبْس وغموض، مستشهدين بدلالة اللفظ في المعجم اللغوي، وهو تحكم –من وجهة نظري–لا مسوّغ له؛ لأنّ الشاعر جعل الجمود مقابلا لسكب الدموع، فأصبح المعنى واضحا لا تعقيد فيه، وليس بالضرورة أن يخضع المعنى المعجمي للمعنى الاستعمالي، لدرجة هذا التحكّم العقليّ الصارم.

وكذا استشهادهم بقول الراجز: (٢)

(وفاحمًا ومرْسنا مسرّجا)

---

(١) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٠٦ شرح وتحقيق عاتكة الخزرجي/ القاهرة/ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٣ه/١٩٥٤م وينظر الإيضاح بتحقيق د/ خفاجي ص١٥.

(٢) ديوان العجاج رواية عبد الملك الأصمعي شرحه وعنى بتحقيقه د/ عزة حسن دار الشرق العربي بيروت لبنان ١٤٢٦ه/١٩٩٥م والفاحم كناية عن موصوف وهو الشَّعْر، شبهه بالفحم؛ لشدة سواده وفيه إشارة ضمنية إلى صباها وشبابها، والمَرْسن: الأنف كله، والمَرسن: أيضا موضع الرّسَن. والمسرّج: المحسّن. يقول: ومُقلة وحاجبا مُزججا...وفاحما ومرسنا مُسرَّجا. الديوان ص٣٣٠.

فدلالة لفظ (فاحم) على السواد دلالة ظاهرة، بينما كلمة (مُسَرّجا) دلالتها على المعنى غير واضحة على ما ذهبوا إليه، وكأننا لا نعرف هل قصد الشاعر تشبيه الأنف بالسيف السريجيّ أو السِّراج؟!

وهو تكلّف منطقي صِرْف من مقعّدي البلاغة، لأنّ تصوّر المعنى في الشعر غير تصوّره في غيره من الأجناس الإبداعية، ولو أنّ البلاغة التقعيدية نبّهت على استهجان لفظ الاستعارة في قوله (مرْسنا) لكان أولى؛ لأنّ المرْسن في الأصل للحيوان، والأنف في لغة الشعر أعذب وأحسن.

المفهوم الاصطلاحي للبلاغة

وإذا انتقلنا إلى مصطلح البلاغة في تراث التقعيديين، فلن تجد الأمر أحسن حالا من الحديث عن الفصاحة، فالبلاغة اصطلاحا في مدرسة الخطيب اختزلت أيضا في عبارة (مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته)، وهذه العبارة التي لاقت رواجا وقبولا -على أهميتها وثرائها-لا يمكن لها أن تصوّر لنا وظيفة علم البلاغة بصورة تكامليّة؛ لأنها عنيت بجانب المطابقة -وهو جانب مهم لا ريب-وفي الوقت نفسه أغفلت العناية بوظائف أخرى للبلاغة، لا يمكن أن يسدّ فراغها علم آخر إذا سكت عنها علم البلاغة.

وهو ما أحس به أديب البلغاء والكتّاب أحمد حسن الزيات -رحمه الله- حين قال عن البلاغة التي يعنيها ويقصدها، أنها بلاغة العقل العربي لا بلاغة العقل اليوناني، وأنها في بلاغة عبد القاهر، وأبي هلال، والجاحظ، وابن المقفع، وليست بلاغة المتأخرين وأضرابهم من الجدليّين والمناطقة، ثم قال: "البلاغة التي أعنيها وأدفع عنها هي البلاغة التي تحدى بها القرآن أُمراءَ القول في عهدٍ كان الأدب فيه صورة الحياة وترجمة الشعور وعبارة العقل، هي البلاغة التي لا تفصل بين العقل والذوق، ولا بين الفكرة والكلمة،

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ولا بين المضمون والشكل؛ إذ الكلام كائن حي، روحه المعنى وجسمه اللفظ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً لا يتمثل، والجسم جماداً لا يحس" (١).

وقد أشار ابن المقفع في تعريفه للبلاغة إلى وجوه كثيرة، غفلت عنها بلاغة المتأخرين ومن شايعهم، وقد سئل ابن المقَفّع عن البلاغة فقال: "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ومنها ما يكون رسائل." (٢)

ولا نتصوّر أن البلاغيين المتأخرين حين درسوا المقام قدّموا دراسة تفي به، إنما كانت إشارتهم إليه مختزلة في سياق كلامهم فضلا عن إهمالهم لما ألمحوا إليه في مجال الشرح والتطبيق؛ حيث أتت جل أحكامهم البلاغية بعيدة في أكثرها عن السياق والحال والملابسات الثقافية والدينية والاجتماعية التي تحفّ بمنتج النص، وتأمل الفروق الفاصلة بين الخطاب في مواجهة الجماهير حين يقع بغرض الإقناع والتأثير، والخطاب الشعري الفنيّ الذي يعزف على وتر الخيال والوجدان والشعور.

---

(١) ينظر مجلة الرسالة ص ٤٩٢/ دفاع عن البلاغة أحمد حسن الزيات ص٣١ نشر عالم الكتب القاهرة ط٢ ١٩٦٧م.

(٢) ينظر البيان والتبيين تح/ عبد السلام هارون ج١ ص١١٥/١١٦.

(٢)

التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة

في مدرسة التقعيد فُصلت علوم البلاغة فصلا حادا، بناء على النظرة العقلية المنطقية المجردة، حيث اختصّ المعاني -بمباحثه الثمانية-بمزية تحقيق المطابقة لمقتضى الحال دون أخويه (البيان والبديع)، فقد حصر السكاكيّ وظيفة علم المعاني في "الاحتراز عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره".

كما حصر وظيفة البيان في الاحتراز" عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه" ولعلّ السكّاكي اتكأ في التقعيد على فكرة اللفظ والمعنى، كما هو الحال في التراث العربي عموما، يُقوّي هذه النظرة صنيعه في وجوه التحسين والتي جعلها من متممات البلاغة بمرجعيها والفصاحة بنوعيها على حد تعبيره، والمحسنات البديعية قسمان قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ. (١)

والسكاكي كان أحسن حالا من الخطيب نفسه، إذ جعل السكاكي منزلة البيان كمنزلة المعاني في تحقيق المطابقة، وهو الواضح من تعريفه للبلاغة بقوله "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعنى حدا له اختصاص بتوفية خواصّ التراكيب حقّها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها" (٢)

فإذا كانت المطابقة تتحقق في علم المعاني من جهة اللفظ، فإن البيان يحقق المطابقة للكلام أيضا من جهة الدلالة على المعنى، بينما الخطيب حصر المطابقة لمقتضى الحال في علم المعاني وحده، ويبقى الحكم على

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص٣٤١/٣٤٢ تح/ د. أكرم عثمان يوسف منشورات جامعة بغداد ط١ مطبعة دار الرسالة بغداد ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٢) ينظر الإيضاح ص٢٢ شرح خفاجي مكتبة المعارف وينظر النص في المفتاح ص٦٥٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

البيان والبديع في منزلة دون منزلة علم المعاني، ولا شكّ أن المطابقة لمقتضي الحال في الكلام البليغ كما تتحقق بعلم المعاني، تتحقق كذلك بأخويه البيان والبديع من غير تمييز.

والملاحظ أن فلسفة التقسيم والفصل الحاد لبحوث البلاغة منبثق من فكرة ثنائية اللفظ والمعنى -كما سلف-التي هيمنت على المفكرين العرب ردحا طويلا من الزمن، وهو ما تحقق في تعريفهم للمعاني بقولهم:

"علم معرفة أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق الكلام مقتضى الحال"

وتعريفهم للبيان بقولهم:

"علم معرفة إيراد المعنى بطرق مختلفة في وضوح الدلالة"

وتنحصر وظيفة العلم الثالث في التحسين والتزيين، فهو:

"علم معرفة وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة"

وللوفاء بالقسمة المنطقية المجردة، جعلوه في قسمين الأول للمحسنات المعنوية والآخر للمحسنات اللفظية، ومن الصعوبة بمكان أن يتحقق هذا الفصل المنطقي الحاد عند قراءة النص الأدبي خاصة، أو النص الخطابي بوجه عام، وكيف يتأتى لنا الحكم أن التحسين قُصد به المعنى أولا في المحسنات المعنوية، وقُصد به تحسين اللفظ أصالة في المحسنات اللفظية؟! وهو كلام إن سوّغه المنطق والعقل لا يمكن أن يسوّغه الفن والذوق.

هذه الثنائية هي التي لفظها عبد القاهر الجرجاني نفسه من قبل، وأسس بحوثه على نقضها وإبطالها بكل سبيل ممكن، شافعا أقواله بالحجج والشواهد والبراهين العقلية والنقلية، ولم يكن عبد القاهر ليفصلَ بين علوم البلاغة هذا الفصل المنطقيّ الحاد لأنّ مردّ البلاغة ومرجعها في فكره إلى النظم، والنظر في الإسنادات، والعلاقات، وتأمّل الوجوه والفروق المعنوية الناتجة عن التصرف في طرائق الصياغة والتأليف.

وإذا صحّ التصوّر القائم على أن بلاغة الرازي والسكاكيّ ومن بعدهما الخطيب والشرّاح والملخّصين قائمة على تلخيص فكر عبد القاهر الجرجاني، فإن هذا لا ينسجم مع قواعدهم التي شيدوا بها أسس هذا العلم، وقد أغفلوا كثيرا من بلاغة الإمام خاصة، وبلاغة الخطاب اللغوي بوجه عام.

أما عن الأبواب الثمانية للمعاني، فبناؤها لا يتخطى البحث في مراسم النظام التركيبي للجملة في اللغة العربية، وجاء الترتيب وفقا للمنطقية العقلية المجرّدة أيضا، حيث كان الباب الأول في المعاني لما اصطلحوا عليه بـ (أحوال الإسناد الخبري) والباب الثاني لـ (أحوال المسند إليه) والثالث لـ (أحوال المسند) والرابع لـ (أحوال متعلقات الفعل) والخامس لـ (القصر) والسادس لـ (الإنشاء) والسابع لـ (الفصْل والوصل) والثامن لـ (الإيجاز والإطناب والمساواة).

ومن وجهة نظري يمكن أن يُعاد النظر في اختصار عدّة هذه الأبواب، دون أن يخلّ ذلك بالمنهج العلمي على هذا النحو:

الأول: باب الخبر والإنشاء وخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

الثاني: باب الإسناد وأحواله (المسند إليه – المسند – القصْر – المجاز العقلي)

الثالث: باب متعلّقات الفعل وقيوده.

الرابع: باب الفصل والوصل.

الخامس: باب الإيجاز والإطناب والمساواة.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

(٣)

الإسناد

يبدو أن بحوث المطابقة لمقتضى الحال عند التقعيديين لا تتجاوز هذه الأبواب الثمانية المؤسَّس عليها علم المعاني غالبا، وعند تأمل هذه المباحث نجدها تنطلق من الفكر النحوي حذو القذة القذة، فالكلام المفيد عند النحاة هو القائم على طرفين كأبسط صورة للجملة العربية، والتي تقوم بطبيعتها على فكرة الإسناد أي (المسند إليه والمسند) حيث لا يكون للكلام اعتبار وإفادة إلا بطريق الإسناد.

فالخبر مبنيّ على المبتدأ "لأن الابتداء لا يكون إلا بمبنيّ عليه، فالمبتدأ الأوّل، والمبنيّ ما بعده عليه، فهو مسند ومسند إليه، و(الفاعل) هو الاسم الذي يرتفع بأنه فاعل هو الذي بنيته على الفعل الذي بني للفاعل، ويجعل الفعل حديثا عنه مقدما قبله، مثل جاء زيد، ومات عمرو، وما أشبه ذلك"(١)

وجملة الإسناد إما أن تكون خبرية أو إنشائية باعتبار ما اصطلحوا عليه بـ(النسبة الخارجية) تحققا وعدما، الأول هو الخبر والآخر هو الإنشاء، لأن الإنشاء كلام لا نسبة له في الخارج، بخلاف الخبر الذي له تحقق في الخارج الذهني، فإن طابقت النسبة الخارجية النسبة الكلامية كان الكلام خبرا صادقا وإلا فنقيضه، كما أن الإنشاء إن ضُمّن معنى الطلب فهو طلبيّ وإلا فغير طلبيّ، وشواهد كلّ مشهورة، وتبقى قضية الصدق والكذب، وربطها بمطابقة الواقع الخارجي أو عدم المطابقة، هو توجّه منطقيّ صِرْف ،كما هو عند أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان.

---

(١) ينظر الأصول في النحو ابن السراج (أبو بكر محمد بن السري) تحقيق عبد الحسين الفتلي ج١ ص٨١/ ط١ ١٩٧٣م مطبعة النعمان، النجف الأحمر.

كما أن إشكالية الصدق والكذب هي كذلك محل نظر في دراسة اللغة الشاعرة خاصة، فالشاعر المبدع لا يتعامل مع اللغة بمنطق الصدق المتعارف عليه، بل له تصوّر آخر يلائم عالمه النفسيّ ومشاعره الوجدانية، يمكن الاصطلاح عليه بـ(الصدق الفني) وبينهما بون بعيد، وبمعنى آخر هناك الدلالة النمطية للكلام، وهي الدلالة الظاهرة المباشرة، ودلالة أخرى نفسية تتخلّق في مخيلة الشاعر وفضائه الرحْب.

وللخبر غرضان أصليان لا ثالث لهما، فإن أريد إفادة مضمون الكلام الخبري حقيقة فهو فائدة الخبر، وإن أريد الإعلام بأنّ المتكلم عالِم بالمضمون والحكم الإسنادي المنوط بوظيفته الدلالية فلازم الفائدة، يقول السكاكي: "ومرجع كون الخبر مفيدا للمخاطب، إلى استفادة المخاطب منه ذلك الحكم، ويسمى هذا فائدة الخبر، كقولك "زيد عالم" لمن ليس واقفا على ذلك، أو استفادته منه أنك تعلم ذلك كقولك لمن حفظ التوراة قد حفظت التوراة، ويسمى هذا لازم فائدة الخبر" (١)، هذا هو الغرض الأساس للخبر وهو المعنى الحقيقي، وللخبر معان كثيرة طريق الوصول إليها هو النظر في السياق والمقام والحال، وقد اصطلح علماء المعاني على تسميتها بالمعاني البلاغية أو المجازية (ولا مشاحة في الاصطلاح).

والحق أن الخطاب الشعري لا يكاد يُوجد فيه هذا الضرب من الأخبار التي تجري على حقيقتها في إطار الفائدة ولازمها، إذ الشعراء غالبا ما يقذفون بالجمل الخبرية التي تكون مفعمة بالمعاني الجمالية، أو المعاني الانفعالية النفسية، كالفخر والمدح والرجاء والتعريض والسخرية والتشاؤم والشكوى والهجاء ونحو ذلك من المعاني السياقية.

---

(١) مفتاح العلوم ص ٣٤٧ تح/ د. أكرم عثمان.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

(٤)

الجملة الخبرية بين جمود المنطق ورحابة الاستعمال

يدور في خاطري جملة من التساؤلات حول دراسة الجملة الخبرية في التراث البلاغي التقعيدي للمتأخرين، وهل تكفي هذه النظرة لتلقّي الكلام الخبريّ في الخطاب القرآني والشعريّ والخطاب الإبداعي عموما؟ مع مراعاة البعد الاستعمالي للكلام الخبري في إطار مقاصده، وأغراضه، وملامحه الفنية، وما يحدثه الخبر من معانٍ فكرية تحرّك الوجود كله نحو القيم السامية والمثل الرفيعة.

وهل نجحت البلاغة التقعيدية في الاهتمام بالجهة التي يصدر عنها الكلام الخبريّ، أم تعاملت مع الخبر بمعزل تام عن المنتج المبدع للخطاب؟ فدلالة الجملة الخبرية في القرآن الكريم كغيرها في كلام سائر الناس، وأغراض الشعراء كأغراض الكتّاب والأدباء، وأغراض السياسيين كأغراض الإصلاحيين، وأصبحت الأغراض تُستنبط من كلام عامة الناس بنفس الآلية التي تُستنبط منها أغراض القرآن الكريم، وأغراض كلام النبوة، وأغراض الشعراء، من غير تمييز بين منازع الكلام، وأغراضه ومراتبه وهذا لا يصح ولا يمكن العمل به.

وقد "قال قوم: المعاني التي أنزل الله بها كتابَهُ الذي هو أصل اللغة وعمود البرهان، وجعله احتجاجا على جميع الأديان، أربعة أشياء: إباحةٌ وحظر، وأخبارٌ وأمرٌ" (١)

لا أرتاب في أن الكلام الخبري تتحدّد وظيفته بصورة كبيرة باختلاف مُنتج الخبر، وفق البواعث والدوافع المختلفة، والجملة الخبرية لها وظائف عديدة باعتبار الأنساق والمتغيرات الثقافية المختلفة، والخبر الذي يكون

---

(١) التفسّح في اللغة ص ٣٩. رواية أبي الحسين بن سفيان النحوي.

الغرض منه الفائدة أو لازمها محدود الدلالة جدا، بل كثير من الأخبار في الوقت الذي تساق فيه بغرض الإفادة تكون مفعمة بدلالات ثانوية أخرى.

وحين نقرأ الجمل الخبرية في القرآن الكريم مثلا نلاحظ ذلك بوضوح، وعلى سبيل المثال حين نتلقى قول الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (١) لا يمكن أن نذهب إلى القول بأنها جمل خبرية، يراد بها الفائدة المجرّدة من المعاني الثانوية التي تتقاطع مع السياق الكليّ للمقاصد المبثوثة في تضاعيف السورة الكريمة.

ربما كان عبد القاهر الجرجاني أدق نظرا في دراسة وتأصيل باب الخبر، وهو الذي سلخه المتأخرون دون أن يفطنوا إلى فحوى كلامه، فقد أصّل أولا إلى فكرة المعاني التي لا تظهر في مفردات الكلم، وهي التي عليها المعوّل، ولا تظهر هذه المعاني ولا تحصل إلا بالإسناد، فإذا عمدت إلى فعل دون أن تسنده إلى شيء (ظاهر أو مقدّر) كان كلامك وصوت تُصوّته سواء، يستوي في ذلك الإثبات والنفي.

وهو كلام في غاية الدقّة والإحكام، إذ لا يُعقل النظر في مضمون كلام إلا بعد تصوّر الإسناد فيه، كأن تسند فعلا إلى اسم (خرج زيد) أو تسند اسما إلى اسم (زيد منطلق)، وإذا كان الخبر يتضمن (مخبرا به ومخبرًا عنه) فلابد أيضا من (مخبِر) يصدر عنه الخبر، وكل مُخبرٍ إما أن يكون صادقا وإما أن يكون كاذبا، وقد يحكم عليه بالإساءة أو الإحسان، والصواب أو الخطأ.

والأهم في كل ما ذكره عبد القاهر وأصاب فيه، وغفل عنه أكثر المتأخرين الذين عنوا بالتقعيد قوله: "وجملة الأمر، أن "الخبر" وجميعَ الكلام، معانٍ ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرّفها في فكره، ويناجي بها

(١) سورة لقمان آية٣٤.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

قلبه، ويراجع فيها عقله، وتوصَف بأنها مقاصد وأغراضٌ، وأعظمها شأنا "الخبر" فهو الذي يَتصوّر بالصور الكثيرة، وتقع فيه الصناعات العجيبة، وفيه يكون في الأمر الأعمّ المزايا التي بها يقع التفاضل في الفصاحة." (١).

يبيّن الإمام أن أخبار البلغاء لا تصدر اعتباطا، ولا تقع على أي نحو كان، وإنما هي نتاج معاناة نفسية، وتصريف للفكر، ومراجعات في العقل الباطن، واستثارة للوجدان والمشاعر، وهذا هو الكلام الذي يقع فيه الصنعة والإبداع، وتقع بسببه المزايا والأسرار، وتقوم به الأغراض والمقاصد، ويظهر فيه التفاوت في الفصاحة والبلاغة.

الخبر وحال المخاطب

ثم عالج البلاغيون جملة الخبر باعتبار حال المخاطب من جهة خلوّ ذهنه بمضمون الجملة أو التردد فيها أو الإنكار، فإن كان خالي الذهن (أي من مضمون الخبر) وبموجب قانون البلاغة سَوْق الكلام بلا توكيد، وإن كان مترددا شاكّا يُستحسن حينئذ توكيد الكلام بأقل صورة ممكنة، وإن كان منكرا وجب أن يؤكَّد له الكلام حسب درجات الإنكار، وإذا بولغ في الجحود والإنكار زيد له من المؤكدات بقدر ما يساوي تكذيبه وإنكاره.

على هذا النحو كانت القسمة المنطقية لما اصطلحوا عليه بـ (أضرب الخبر) إلى: ابتدائي، وطلبي، وإنكاري، وفي هذا الصدد يتناقل التقعيديون باتفاق عجيب رواية تسوّغ ما قالوا من محاورةٍ وقعت بين المبرّد عالم اللغة والكِنْديّ الفيلسوف المشهور، إذ قال الفيلسوف للمبرد: "أجد في كلام العرب حشوا تقولون: عبدُ الله قائم، إن عبدَ الله قائم، إن عبدَ الله لقائم، كلّها بمعنى واحد"، أراد أنها جميعا تفيد قيام عبد الله، فلا حاجة إلى هذه البدائل الأسلوبية بزيادة (إنّ) مرة وتارة بزيادة (إنّ واللام).

---

(١) الدلائل طـه الخانجي ص٥٢٨.

جاءت إجابة المبرد مقنعة عقلا فقولنا (عبد الله قائم) إخبار عن قيامه، وقولنا (إن عبد الله قائم) لمن يتردد في قيامه، و (إن عبد الله لقائم) لمن ينكر قيامه [١]

إجابة المبرّد جاءت مراعية الجانب الاستعمالي للغة في سياقاتها، ولم يفهم منه حصر المغايرات الأسلوبية في تلك المستويات الخطابية فقط، بينما الدراسة التقعيدية للخبر دارت في فلك هذه النظرة، دون مراعاة الفروق الدقيقة بين الإبداع في عالم الشعر والفن، والتقنين العلمي القائم على البحث والنظر.

وتراهم يستأنسون بقول الله تعالى (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ) [٢] فقد أكّد في مقام التكذيب (إنا إليكم مرسلون) ولما بالغوا في الجحود والتكذيب زيدت المؤكدات أيضا (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) فأكد بالقسم وإنّ واللام، غافلين الفروق الجوهرية بين مقاصد الخطاب القرآني الإقناعي، والخطاب الفني الانفعالي الذي يهدف إلى الإمتاع والمبالغة قبل كل شيء.

وتوكيد الخبر وعدمه مرتبط عند السكاكي بفكرة مقتضى الحال، وكذلك صورة المسند إليه والمسند، وهو أمر جيّد لولا أنه قصّر عن الوفاء بكل ما يحف السياق اللغوي والسياق المقامي، ولهما جهات كثيرة، وليست محصورة في السياق اللغوي وحده، بل هناك السياق الثقافي، والسياق الاجتماعي، والنفسي، والعقَدي، وهلمّ جرّا.

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز ٢٠٦ وينظر مفتاح العلوم ص ٣٥٤.

(٢) سورة يس الآية ١٣/١٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

يقول السكاكي: "فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحُسْن الكلام تجريده من مؤكدات الحُكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحُسْن الكلام تحلّيه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوّة، وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه فحُسن الكلام تركه وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحُسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا إن كان المقتضى ترك المسند فحُسن الكلام وروده عاريا عن ذكره، وإن كان المقتضى إثباته مخصصا بشيء من التخصيصات فحُسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدّم ذكرها" (١).

وقد كان صاحب الوساطة أدق نظرا، وأسبق للنظريات الحديثة حين رأى أنّ "الشعر لا يُحبّبُ إلى النفوس بالنظر والمحاجّة، ولا يُحلّى في الصدور بالجدال والمقايسة، وإنما يَعطفها عليه القبول والطلاوة، ويقربه منها الرونق والحلاوة، وقد يكون الشيء متقنا محكما ولا يكون حلوا مقبولا، ويكون جيدا وثيقا وإن لم يكن لطيفا رشيقا" (٢).

وإن راعت البلاغة حال المخاطب في الأغراض الحقيقية، فقد راعت كذلك حال المتكلّم نفسه، إذ سوّغت له الخروج عن هذه الأصول المرعية؛ لاعتبارات يلاحظها في المخاطبين، فأجازت له تأكيد الخبر ولو كان المخاطَب خالي الذهن، وبترك توكيده في مقام الإنكار؛ لاعتبارات أخرى يدركها في نفسه، وقد اصطلحوا على هذه التحولات -بالإضافة إلى موضوعات أخرى- بـ (خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر)، ومع ذلك فقد أغفلوا في هذا السياق الحالة الشعورية للمتكلم نفسه وهو المهم في العملية الإبداعية برمتها؛ لأنه المنتج للإبداع المنفعل به في المقام الأول.

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ٣٥٠/٣٥١ تح/ د. أكرم عثمان يوسف

(٢) ينظر الوساطة ص١٠٠.

يشير السكّاكيّ إلى بلاغة خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في الجملة الخبرية، ويقيد كلامه بالخَطابيّة كما هو واضح في عبارته التي يقول فيها "إنّك ترى المفلّقين السحرة في هذا الفن ينفثون الكلام لا على مقتضى الظاهر كثيرا، وذلك إذا أحلّو المحيط بفائدة الجملة الخبرية وبلازم فائدتها علما محلّ الخالي عن ذلك لاعتبارات خَطابيّة، مرجعها تجهيله بوجوه مختلفة" (١).

ويؤكّد السكاكي على أن فرسان البلاغة يستكثرون من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر "وهذا النوع أعنى نفث الكلام لا على مقتضى الظاهر، متى وقع عند النظار موقعه استهش الأنفس، وأنّق الأسماع، وهزّ القرائح، ونشّط الأذهان، ولأمر ما تجد أرباب البلاغة وفرسان الطراد في ميدانها الرامية في حلاق البيان، يستكثرون من هذا الفنّ في محاوراتهم"(٢).

والحق أن هذه الأصول قد يخضع لها الخطاب المقاصدي الموجّه، والذي يقع غالبا في سياقات الخَطَابيّة والمحاورة فهو يصدق على ضرب من ألوان الخطاب، غالبا ما يكون شفهيا حضوريا أو مقاصديا إقناعيا، أما الخطاب الإبداعي الفني فلا يمكن أن يسير وفق هذه الرؤية المنطقية الصّرْفة؛ لأن الإبداع في حقيقته حالة نفسية شعورية خالصة، تستفز المبدع وتحرك نشاطه الفكري وفق عالمه الخاص به، دون مراعاة جوانب أخرى كافتراض مخاطَب بعينه، وافتراض العلم المسبق بنوازعه ومعتقداته حتى يعرف متى يؤكّد له الكلام، ومتى يسوقه عاريا من غير توكيد، فضلا عن اختيار الوسيلة المعتبرة بالتأكيد، وزيادة المؤكدات أو التقليل منها.

---

(١) مفتاح العلوم ص ٣٥٥.

(٢) ينظر المفتاح ص٣٥٦/٣٥٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وللمفكر الفرنسي (روسو) عبارة رائعة يقول فيها: "إنّ شعور القلب فوق منطق العقل" (١) وهي عبارة –على وجازتها–تلمس جانبا مهما في الإبداع، تلك أمور حين توزن بمقياس الإحساس الوجداني الشعريّ الخالص، تخطّ لنفسها منهجا بلاغيا يليق بها، وتقتضي منهجا بيانيا آخر، يكون منطلقه الوجدان والذوق والفن والجمال.

وإذا كان الخروج على خلاف مقتضى الظاهر من أهم أبواب الجمالية في الفن والبلاغة، وله منها نصيب وافر، فإن الذي يلفت النظر في تراث المتأخرين تلك الفجوة بين التنظير والشواهد التي ساقوها كممارسة تطبيقية؛ حيث عالجوا أكثر الشواهد بمعزل عن سياق الذات المبدعة، وسياق المكان والزمان، وارتباط ذلك كله بسياق الأقوال والأحوال، ومقتضياتهما، والمؤثرات الأخرى الكثيرة التي لا يمكن تجاهلها.

وإذا كان الخروج على خلاف مقتضى الظاهر هو خلاصة البحث في مزايا الخطاب وأسراره، فإنّ التقعيديين شتتوا بحثه –كما شتتوا كثيرا من المباحث البلاغية المترابطة–وكان الأولى بهم أن يضموا ما تشتت منه في مساق فكريّ واحد على أن يستوعب وينتظم في بحوثه كل صور العدول في الكلام؛ كي تتضح القيمة البلاغية، والوظيفة الفنية، بصورة منسجمة متكاملة.

وهو ما اهتمت به اللسانيات الحديثة في سياقها الغربي، وأطلقوا عليه مصطلح (الانزياح) وهو عندهم يشمل كل صور الخروج عن النمط الطبيعي والمألوف الأصلي للكلام، ويمتد البحث فيه إلى مستويات اللغة المختلفة كالانزياح في بناء الصيغة (المستوى الصرفي) والانزياح في التراكيب (المستوى النحوي) والانزياح اللغوي الاستبدالي من جهة الدلالة كالمجاز

(١) قصة الفلسفة وِلْ دْ يورانت ص٣٥٣.

والاستعارة والكناية والتعريض ونحو ذلك واعتبروه جوهر العملية الشعرية، إذ الشعر عندهم انزياح والقصيدة بجملتها انزياح من النثر بل إن الانزياح هو الأسلوب، وهو كل ما ليس شائعا ولا عاديا، ولا مطابقا للمعيار العام المألوف.(١).

وإذا كان غير العرب قد احتفوا بهذه الظاهرة باعتبارها أساس الشعرية، فإن علماء العرب القدامى قد نبهوا على أهمية العدول (الانزياح)، فها هو الجاحظ يلفت إلى أن للعرب إقداما على الكلام؛ ثقة بفهم أصحابهم عنهم.(٢) فشبه تصرفات العرب في صنعة البيان بتصرفات الفارس المقدام الذي يحسن فنون القتال، ويتصرّف فيه على الوجه الأكمل الذي يحقق له مراده، كما أطلق ابن جنى على كثير من التصرفات الأسلوبية (شجاعة العربية) وخصص له بابا كاملا، أبان فيه عن كثير من المزايا والأسرار، يقول ابن جني "لو أحسّت العجم بلطف صناعة العرب في هذه اللغة، وما فيها من الغموض والرقّة والدقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها، ولا رفعت من رؤوسها باستحسانها وتقديمها" (٣) .

والحق أن تقعيد باب الخبر – على أهميته – غلبت عليه النزعة العقلية والجدل المنطقي؛ مما أضاع الكثير من قيمه الجمالية على مستوى الخطاب الحجاجي الاقناعي المقاصدي، وعلى مستوى الفن والشعريّة، كما أن الخطاب القرآني المنزّه لا يمكن أن يُفهم بهذه العقلنة المجرّدة من فحوى الخطاب وسياقاته ومؤثراته، فإذا صدق قولهم هذا مع أية (يس) مثلا، فكيف

---

(١) ينظر مناهج النقد الأدبي السياقية والمقامية ص٢٠٦ بتصرف. وينظر كوهن . جان بنية اللغة الشعرية ترجمة محمد الولي ومحمد العمري دار توبقال للنشر المغرب ط١ ١٩٨٦ ، ص١٦ .

(٢) ينظر الحيوان ج٥ص٣٢.

(٣) الخصائص ج١ ص ٢٤٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

يصدق في قوله تعالى (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)؟!

فجملة التذييل جملة خبرية مؤكَّدة (إنك أنت العزيز الحكيم) والتأكيد هنا لا يمكن أن تتضح أسراره بمعزل عن السياق (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[1] أدبُ تلقي السؤال الصادر من مقام الألوهية (سبحانك) تعظيم وثناء وتمجيد، والسؤال في هذا المقام سؤال تبكيت وتعنيف وإنكار للقوم لا له –عليه الصلاة والسلام– ثم أبان عن مطلق الحكمة الإلهية في العفو أو المآخذة للقوم، فكان تذييل الكلام بالخبر المؤكّد (إنك أنت العزيز الحكيم) والتأكيد هنا مقصود للمعنى ذاته والذي يجب أن تنفعل به النفس السوية وتذعن للأمر الإلهي دون تردد، فمن عزّ حكم، والحكيم لا يتصرّف إلا بمقتضى العدل والحكمة، وإذا حكم لا معقب لحكمه.

ويقول الله تعالى (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) [2]

لا يمكن لي أن أتعامل معه بمقياس التقعيديين، فأقول إنه أكد باعتبار المخاطب المتردد أو المنكر مثلا، بقدر ما أرى فيها من تأصيل معنى من

(١) سورة المائدة الآية ١١٦/١١٨.
(٢) سورة يونس الآية ٣٦.

المعاني الجليلة التي يقوم عليها الوجود ولا يصح إلا بها، إن الجمل الخبرية الثلاث (وما يتبع أكثرهم إلا ظنا) (إن الظن لا يغني من الحق شيئا) (إن الله عليم خبير) مؤكدة جميعها باعتبار ما تحمله من قيمة فكرية عليا، لا تقوم الحياة ولا تستقيم الأخلاق الإنسانية إلا عليها، بغض النظر عن التوجه إلى مخاطب مقصود بذاته، كأن يكون خالي الذهن أو مترددا أو منكرا كما سلف، بل هو خطاب إلهي، يراد به حمل النفس على تصحيح تصوراتها، وإقامة أمرها على سلّم الحق والصواب.

وفي قول الله تعالى:(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ)[١] .

جملة خبرية مؤكّدة بأكثر من وجه، والخبر هنا لا يمكن فهمه حق الفهم بمعزل عن السياق، وهو في سياق الردّ على مشركي قريش وادعائهم على القرآن أنه افتراء وأساطير وأنه منقول من كلام البشر، فجاء الردّ الموجّه بأسلوب غير مباشر المفهوم بالتعريض من دلالة (إنّما) أي الذين يفترون الكذب هم هؤلاء لا غيرهم، وقد أشار إليهم بإشارة البعيد لبعدهم من الحق وإغراقهم في الكذب المؤكّد بالإشارة وضمير الفصل (أولئك هم الكاذبون)، ونظْم جملة الخبر جاء في موازاة دعواهم (إنّما أنت مفتر) (إنما يعلّمه بشر)، فجاء الردّ على مقولتهم الباطلة بالجملة الخبرية، داحضا حجتهم، هاتكا سترهم وكذبهم بأبلغ طريق.

ونقرأ قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) [٢] والآية الكريمة مشحونة بالتوكيد؛ لأنها تحمل معنى فكريا مُهمّا، بغض النظر عن طبيعة حال المخاطب إن كان خالي الذهن أو مترددا أو منكرا.

---

(١) النحل ١٠٥.
(٢) سورة الذاريات ٥٦/٥٨.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وإن الإشكال الذي وقع فيه المتأخرون الذين عنوا بتقعيد البلاغة، أنهم قد حصروا فكرهم في حال المخاطب -كما سبق ذكره-كما قصروا نظرتهم على التوكيد الظاهر في الجملة، بينما التوكيد في القرآن الكريم له صور واعتبارات كثيرة، لم تستوعبها نظرتهم عند التقعيد، ففاتهم كمّ هائل من الدلالات الكثيرة في تلقّي الجملة الخبرية، وتذوق أسرارها.

إنّ توكيد الجملة الخبرية باب واسع في القرآن الكريم، لا يمكن أن يختزل في حال واحد هو "حال المخاطَب" دون غيره، ونحن بالضرورة لا ننكر اعتبار حال المخاطَب، ودوره في مقصدية الخطاب جملة وتفصيلا، إنما نرفض أن ينحصر دور التوكيد للخبر في القرآن الكريم في هذه الصورة دون اعتبار أحوال أخرى كثيرة، كبثّ الطمأنينة النفسية في مقامات الخوف والفزع مثلا، أو غرابة الخبر، ولفت الذهن إلى مضمون الكلام، وامتلاء النفس بالهيبة والجلال، ودفع التوهمات النفسية السلبية ونحو ذلك، باعتبار أن الجملة الخبرية ذات دلالة مشحونة بالكثير من الحمولات والمضامين الفكرية، فيأتي التوكيد كمحفّز لغويّ يعمل على التفاعل والديناميةة؛ لهذا تتنوّع وسائل التوكيد في الكلام، ويقع التصرّف الكبير في اختيار بنياتها المنسجمة مع النص وظلاله وإيحاءاته.

وإذا أنعمنا النظر في القرآن الكريم سنجد التصرفات العجيبة في توكيد المضامين الخبرية، باعتبارها في المقام الأول ذات أبعاد مقاصدية، تلائم كلّ خطاب، فتجد التأكيد بالقسم يأخذ صورا إبداعية محتلفة، فمرة يقع القسم بالشمس، ومرة بالضحى وأخرى بيوم القيامة، ومرة بالقرآن، وأخرى بالزمان، ومرّة بحياة النبيّ -صلى الله عليه وسلم-وتارة يؤكّد بإنّ وأخرى بالسين وسوف والتكرير وضمير الفصل والقصر والتوكيد اللفظي والمعنوي

والنعت والحال وغير ذلك، مما يحقق التلاؤم والانسجام في مستوى الخطاب والمقام.

ولا أريد أن أسترسل في البيان بقدر ما أريد أن أضع النقاط على الحروف، وإلا فالأمثلة كثيرة، قال تعالى : (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (١) فأتى التوكيد بـ(اللام) بالإضافة إلى التوكيد بـ(إنّ) من باب "زيادة التوكيد على التوكيد"(٢) ومثله قوله تعالى: (وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (٣) فاللام مزيدة للتوكيد فضلا عن التوكيد بإنّ أيضا، وكقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) (٤) ونحوه : (إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) (٥) وغير ذلك أضعافا مضاعفة في القرآن الكريم جاء التوكيد منظورا فيه إلى اعتبارات كثيرة غير التكذيب أو التردد أو الإنكار، وقوله –صلى الله عليه وسلم– "ألا إن الدنيا خضرة حلوة! ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون" وقوله "إنّ المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى" وكلها من باب ضرْب الأمثال، المثل الأول يبيّن حقيقة الحياة الدنيا حين تقبل على الإنسان بنضرتها وبهجتها، فيعقد عليها الآمال، ولكنها سرعان ما يزول نعيمها، ويذهب بهاؤها، شأن الخضرة التي تروق وتعجب حينا وتبهج الناظرين، ثم تأخذ دورتها وتصير رمادا، والمثل الثاني ضُرب للناس لغرض عدم مغالبة النفس والخروج بها عن طبائعها وفطرتها، وأنّ

---

(١) أل عمران الآية ٧٨.
(٢) ينظر معاني القرآن وإعرابه ج١ ص٤٤٢.
(٣) العنكبوت الآية ٦٤.
(٤) الفجر الآية ١٤.
(٥) العصر الآية ٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الدين يسر، وعلى العاقل أن يسدّد ويقارب، فالدين ليس عنتا ولا مركبا وعرا، وإنما الدين حياة للنفوس، وراحة للعقول، وسلامة للبدن والروح، ولا مجال للقول بأن الجُمل الخبريّة هنا أُكدت باعتبار الشك أو الإنكار بقدر ما هو توكيد للمعنى ذاته، كقيمة من قيم الأخلاق والوجود.

وإذا ما وقفنا على قول جميل بن معمر في بثينة: (١)

وإني لأرضَى من بُثينةَ بالذي ... لو أبصره الواشي لقرّتْ بلابلُهْ
بِلاَ، وبألاّ أستطيع وبالمنى ... وبالوعد حتى يسأمَ الوعدَ آمِلُهْ
وبالنظرةِ العجْلَى وبالحوْل تنقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائلُهْ

لا يمكن أن نتصوّر أنه أكّد الكلام باعتبار مخاطب مفترض بين يديه متردد أو شاك، بقدر ما هو انفعال وشعور وامتلاء بالحب والرضا عن المحبوب والتشوّق له، ولأستاذنا الدكتور بسيوني فيود لفتات مهمة وإلماعات نافعة، تروقك حين تسمعها في قوله: "وحال المخاطب ليست دائما هي المعوّل الذي يعول عليه في توكيد الخبر أو عدم تأكيده، فقد يؤكد الخبر دون نظر إلى أحوال المخاطب، بل لدواع أخرى بعيدة عن تلك الأحوال، كما قد يترك توكيده دون أن يكون لحال المخاطب دخل في ترك التوكيد" (٢)

وأحب أن أعرض نموذجا شعريا، تستبين فيه معالم الرؤية الجمالية للخبر الذي يجري على ألسنة الشعراء، وكيف نتعامل معه تعاملا جماليا فنيا، بعيدا عن المنهجية المنطقية الصارمة، وهو بيت من الشعر، ورد على ذاكرتي دون قصد منى في الاختيار أعني قول النابغة المشهور:(٣)

---

(١) ديوان جميل بثينة تقديم بطرس البستاني ص٨٨ دار بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٢) علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني د. بسيوني فيود ص ٥٧ مؤسسة المختار ط٤ ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

(٣) ديوان النابغة الذبياني تح/ الطاهر بن عاشور ص٩٢/٧٦ نشر الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية الجزائر.

(سَقَطَ النّصِيفُ ولَمْ تُرِدْ إِسْقاطَهُ)

من قصيدة قالها النابغة الذبياني في وصف (المتجـرّدة) زوج النعمـان ملك الحيرة، وكادت القصيدة تودي بحياته وتُسكت صوتَه قبل حين، ولـيس من مذهبي أن يُحَاكمَ الشعراء بلسان الفقهاء؛ لأنّ الشعر فـن مـن البيـان المخصوص يُهيمن عليه سلطان التوّهم ويَغلب عليه الخيـال، والخيـالُ لا يصحّ أن يُحاكم بقوانين العقل والحق والدين، ولعلّ هذا ما دفع بعض النقـاد إلى أن يقول صراحة "والدين بمعزل عن الشعر" (١) ويقول قدامـة "لـيس فحاشة المعنى في ذاته مما يزيل جودة الشعر فيه" ويقول أبو بكر الصولي: "وما علمت أنّ إيمانا زاد في شعر ولا أنّ كفرا نقص منه"

أمّا عن مناسبة القصيدة –على ما قيل– فقد دخل النابغةُ على النعمـان يوما وكان من جلسائه المقربين–فوقع بصره على (هند) زوج النعمان، وقد سقط قناع وجهها، فأخذته بيدها، واحتجبت عن العيون، ومـا زال النعمـان بالنابغة حتى قال قصيدة يصف فيه جمالها الفاتن، فأخذ النابغـة يسـتخرج مكنون نفسه مضمّنا هذا المشهد في شعره: (٢)

سقطَ النصيفُ ولم تُردْ إسقاطهُ فتناولتهُ واتقتنا باليدِ

واستبدّ به شيطان الشعر حتى أغرق في وصـفها وأفحـش، فوصـف حديثها وريقها، وبلغ منها مبلغا لا يضع الراقي فيه أنفه تخييلا وادعـاءً لا حقيقة ومعاينة، مما حدا بالمنخّل اليشكريّ الشاعر أن ينجح في الوقيعة بين النابغة والنعمان، قال أيها الملك هذا حـال مَن عايَن وجرّب لا مَن وصـف وبالغ، فأوغر صدر النعمان، نمت الوشاية إلى علم النابغة ففـرّ هاربـا إلى

---

(١) قالها القاضي الجرجاني في شأن من ينتقصون أبا الطيب ويغضون من شعره لأبيات تدلّ على ضعف في العقيدة وفساد المذهب في الديانة ينظر الوساطة لعلي بن عبد العزيز الجرجاني ص٦٣ تح/محمد أبو الفضل إبراهيم والبجاوي المكتبة العصرية ط١ ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

(٢) من قصيدة مطلعها: أمن آل ميّة رائح أو مغتدِ...عجلانَ ذا زاد وغير مزوّدِ. الديوان ص٩٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الغساسنة في بلاد الشام مدّة من الزمن إلا أنه ظل على عهده وفيا للنعمان يسترضيه ويمدحه حتى عاد وقربه من بلاطه مرة أخرى.

وعلى ما قاله النابغة من فحش وإغراق في قصيدته إلا أنّ قوله: (**سَقَطَ النّصِيفُ**) وقع في نفسي حتى قلت هذا من أبلغ الكلام وألطفه.

وإن الجملة البليغة الموحية تغازل من يهواها، وتلوح بين عينيه المعاني والظلال، تطاوعه حينا وتُعرض عنه أحيانا، ولا أكتم حُبّي وكَلَفِي بالكلمة الشاعرة، ولا تستهويني المعاني المكشوفة السافرة التي يهتدي إليها كل إنسان، وإنما أبحث دائما عن المعاني الكامنة التي أعثر عليها بعد جهد ومشقة، تلك المعاني التي تُومض من وراء الغيب والسّديم، فتلوح كالبرق بين الجوانح والضلوع.

(**سقطَ النصيفُ**) جملة خبرية مشحونة بالإيجاز، ليست كغيرها من الجمل؛ لأنها تختزل الكثير من المعاني والظلال، والمشهد وإن كان عابرا وقع في بصر الشاعر خِلسة دون إرادة وقصد، إلا أنّ صورة سقوط النصيف بقيت حيّة نابضة في ذاكرة الشاعر وحافظته، واستطاع أن ينسج خيوطه بعبقرية، بلغ بها من البيان ما بلغ!

(**سقطَ النصيفُ**) أسند السقوط إلى النصيف ولم يسنده إلى المرأة، واحترس للمعنى الذي أراده بالإطناب البليغ في قوله (**ولم ترد إسقاطه**) فرسم أمام أعيننا مشهدا من الجمال المتوّج بالحياء المحمود في المرأة خاصة، ولو قال: (**أسَقطتِ النصيفَ**) فأسند الفعل إليها وجعلها هي المباشرة والمزاولة للفعل لذهب بهاء المعنى، وأصبحت هي تلك المرأة اللعوب المبتذلة في عين من يراها.

وقوله (**فتناولته واتقتنا باليد**) جملة أخرى خبرية، صدرت من شاعر فنّان، يعرف كيف يُضفي على بيانه سمة الجمال، وكيف يجعل من بيانه

عملا إبداعيا مؤثرا في النفوس؛ لتكون بلاغة التصوير والضم والإسناد والنظم وحسن التأليف هي المعيار الأهمّ في تذوّق البيان والاهتداء إلى خصائصه ولُمَعِه وأسرارِه، فأتّى لهذه القواعد التي خضعت للمنطق الصوري المجرّد، قراءة النصّ الشعريّ الإمتاعيّ، قراءة فنية، تليق بظلاله وإيحاءاته، وتحيّد المتلقي الناقد، بما لا يصادر رؤية المبدِع المنتج للخطاب حسب ما تضيف إليه من المعاني المستلهمة، وما تبيّضه من فراغات النص التي يهتدي إليها المتلقي العبقري بقدر علمه وثقافته؟!

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

(٥)

أحوال الإسناد (المسند إليه – المسند)

هذا الباب من أكثر الأبواب التي أصابها الجمود والجفاف في مدرسة التقعيد والتصنيف، وقد أرهق البلاغيون أنفسهم في تشتيت مباحثه وأغراضه، مما أوقعهم في الاضطراب والتكرار؛ رغبة في التقسيم والترتيب المنطقي الذي ألزموا به أنفسهم.

والمقصود بأحوال الإسناد مجموع الأمور التي تعرض للمسند إليه والمسند من تغيرات في صورة اللفظ ورتبته (الموقع الإعرابي) كالتعريف والتنكير والذكر والحذف والتقديم والتأخير، فمرة يتحدثون عن أغراض المسند إليه دون المسند وأخرى للمسند دون المسند إليه، وكذلك الحال في التعريف والتنكير، فنجد مبحثا مستقلا للتعريف وآخر مستقلا للتنكير، ومبحثا للحذف وآخر للذكر، وكذلك كانت دراسة التقديم والتأخير للمسند إليه والمسند، مما أضعف البحث البلاغيّ وأخرجه في صورة باهتة لا تتجاوز العدّ واستقصاء بعض معانيها في الكلام.

كما تناثرت مباحث التقديم والتأخير والحذف ما بين الحديث عنهما في باب أحوال الإسناد مرة وفي باب المتعلقات مرة أخرى، ولو أنهم عقدوا عدّة أبواب يبحثون فيها هذه الثنائيات بإيراد الشواهد الفنية المختلفة وقراءتها وفق مساقها الفني الإبداعي لقدموا دراسة ممتعة تنمّي الذوق وتُمتع النفس، فباب يتحدثون فيه عن أحوال الإسناد، وآخر للتعريف والتنكير دون فصل بينهما، وثالث للتقديم والتأخير والحذف بما في ذلك دراسة المتعلقات من غير فصل، ومن خلال قراءة النص الذي يمثل فكرة كلية دون الاكتفاء بالجملة أو بعض الجملة مما لا يعطي صورة واضحة للأغراض البلاغية على الوجه الصحيح.

وإذا كانت البلاغة التقعيدية قد أغفلت كثيرا من المؤثرات والقيم البلاغية من يوم أن صنّف الرازي كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) لتلخيص كتابيّ عبد القاهر، ووضع السكاكيّ قواعد العلم وأركانه، واكتملت الصورة المثلى على يد الخطيب القزويني في كتابيه التلخيص والإيضاح، ودار الشرّاح من بعدهم في هذا الإطار المرسوم، فإن الملامة أكبر على الذين تعاطوا البلاغة ترتيبا وتصنيفا في عصورها المتوالية.

ولا أجد مبررا أيضا لاختزال المقررات الجامعية في بضع كتب هيمنت على الساحة الفكرية العربية بشكل مُريب، بحيث يتداولها الطلاب والدارسون كابرا عن كابر، دون مراعاة للمتغيرات الثقافية، والتطوّر الطبيعي، الذي هو ضرورة بشرية، وسنّة كونية من سنن الحياة والأحياء.

وأمست المقررات البلاغية في معاهد العلم لا تتعدى منهج الصفوف الثانوية، كالبلاغة الواضحة، والبلاغة العربية في ثوبها الجديد، وبلاغة الشيخ المراغي، والدكتور عبد العزيز عتيق، وغيرهم ممن لم يتجاوز طرائقهم، مما أدى بطبيعة الحال إلى جمود الفكر وركود الذهن، وغياب الوعي لدى الأجيال المتعاقبة.

تلك داهية يتولى أصحابها كِبْرها، وقد آلت البلاغة العربية إلى ما آل أمرها إليه، حتى ارتفعت صيحات مشبوهة، تنْحَى باللائمة على البلاغة والبلاغيين، بدعوى أنها شاخت وآن لها أن تموت وتنسج أكفانها في حين غفلة من أهلها، وأن الزمان لم يعد زمانها، وأنها إن صلحت في الماضي فأنى لها أن تصلح في الحاضر؟!

ساعدهم على ذلك هذا الموات والركود والجمود الذي أصاب المؤلفات البلاغية، حيث يتوارثونها على علاتها، دون محاولة جادة لإعادة النظر في مباحثها، ومحاولة تبويبها تبويبا آخر يليق بها، والعمل على إضافة ما سقط

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

من مباحثها سهوا، نظرا لطبيعة البلاغة التي تستعصي في حقيقة الأمر على التقعيد الذي يخضع للمنطق الصارم.

والحلّ من وجهة نظر سديدة أن تتبنى المؤسسات العلمية بصورة جماعية هذا العبء الثقيل؛ لتعود البلاغة إلى سيرتها الأولى تقود زمام البيان، كأداة أساسية في تقدير الفن والإبداع.

على أن البلاغة علم يمتاز بالمرونة والذوق بما يسمح بإضافة ما يمكن إضافته من بحوث هي من صميم الفكر البلاغي، وليس بالضرورة أن تقف البلاغة عند حدود دراسة الشعر والنثر -على أهميتهما-بل يمكن لها أن تستوعب كل الخطابات التي يكون لها أو يرجى لها أن تكون فاعلة في نهضة هذه الأمّة، وبعث الحياة فيها من جديد.

فهناك الخطابات السياسية التي تخاطب العقل الجمْعي، والخطابات الاجتماعية، والفلسفية، والأخلاقية، والخطاب الدينيّ العقدي، وكلها في مسيس الحاجة إلى علم البلاغة؛ تقويما وتصحيحا لمسارات هذه الخطابات التي كانت سببا في انهيار أمم وسقوط دول على ما شاهدناه في حياتنا وواقع أمتنا.

وإذا أنعمنا النظر في الخطاب القرآني فسنجد مسالك عدة للخطاب، ولكل خطاب منهجه وطريقته، ولا يمكن لك أن تجد خطاب القرآن الكريم لأهل الكتاب كخطابه للمشركين، ولا خطاب الواحد من الناس كخطاب جماعتهم، ولا يسوّي القرآن بين الخطاب العام الذي يراد به عامة الناس والخطاب المخصوص الموجه لجماعة المؤمنين.

ولا شك أنّ مقومات الخطاب العام غير مقومات الخطاب الخاص، فنجد القرآن مرة يقول (يا أيها الناس) ومرة يقول (يا بني آدم) وأخرى يقول (يا أيها الذين آمنوا) وتارة يقول (يا أيها النبي) وأخرى يقول (يا أيها الرسول) وكلها خطابات لها سياقاتها ومقاماتها التي لا يمكن أن تشتبه على العقلاء.

وإذ قد ظهرت أشكال إبداعية مختلفة كالقصة والرواية والمسرحية – وكلها نتاج إبداع وفن–لا يمكن للبلاغة أن تقف في معزل عن تقديره، والمشاركة في توجيهه، وتصحيح مساره في إطار تطوّر الرؤية البلاغية، وتوسيع مجالاتها حتى تصلح ميزانا للإبداع بمختلف صوره وأشكاله، وتواكب التجدّد الفكري والحضاري، الذي هو سنة كونية لا محيص عنها.

وضرورة أن يعاد النظر في كل فرع من فروع علم البلاغة بحسب تصوّر غايات كل علم ومقاصده، فعلم المعاني علم يبحث في البناء والتراكيب من جهة النظم ومعاني النحو، أي أنه يدرس الجملة في كل صورها وتحوّلاتها الممكنة، ومعرفة أسرار العدول والالتفات وصور الإسناد ونحو ذلك، بدلا من التعريف المشهور (أحوال اللفظ العربي) والحقيقة أن علم المعاني لا يدرس أحوال اللفظ بصورة مفردة بمعزل عن السياق كما قد يتبادر إلى الأذهان وهو (فن القول) باصطلاح شيخ المجدّدين أمين الخولي –رحمه الله– فهو علم يهتم بالنظر في الصياغة وتميّزها ويبحث كذلك في الخطابات المختلفة ومدى تحقق المطابقة من عدمها.

إنّ بناء المعاني ليس عملا هينا، بل هو أشبه ما يكون بالصائغ الماهر الذي يتصرّف في تشكيل السبائك الذهبية والمعدنية على نحو معجب، إلا أن هذا يذيب المعادن ويعيد تشكيلها خلْقا آخر، وذاك يصوغ من الحروف والكلمات ما يروق الوجدان ويستميل الفكر والشعور، ولكلّ ماهر في فنّه وصنعته تصرفه وعبقريته، والناس في ذلك يتفاوتون تفاوتا بيّنا.

وحتى لا يكون الكلام خطابيا إنشائيا أو ادعاء ومبالغة؛ فيجدر بنا أن نعرض لمبحث من أهم مباحث علم المعاني، هو (أحوال المسند إليه) أي الأمور العارضة له، كحذفه وذكره، وتعريفه وتنكيره، وتقديمه وتأخيره وغير ذلك.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وحذفه -كما في الإيضاح وغيره-يكون لمجرّد الاختصار، والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، وإما لذلك مع ضيق المقام، ولاختبار تنبّه السامع له عند القرينة أو مقدار تنبّهه، وإما لتطهير اللسان عنه، أو ليكون لك سبيل إلى الإنكار إن مسّت الحاجة، أو لأنّ الخبر لا يصلح إلا له حقيقة... (١)

هكذا تنحصر أغراض حذف المسند إليه في هذه الدواعي المحدودة الضيقة كما تجد في تعليقهم على قول الشاعر: (٢)

قال لي كيف أنت قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

إذ التقدير: أنا عليلٌ، وحذف المسند إليه لعلة الاختصار والاحتراز عن العبث ولضيق المقام.

وقول الآخر: (٣)

سأشكر عمْرا إن تراخت منيتي أيادي لم تمنن وإن هي جلّت

فتى غيرُ محجوبِ الغنى عن صديقه ولا مظهرِ الشكوى إذا النعلُ زلّتِ

وتقدير الكلام: هو فتى، فحذف للعلم به، أو لأنّ الخبر لا يصلح إلا له، هكذا يقولون!

وقول بعض العرب في ابن عمّ يذمّه: (٤)

سريعٌ إلى ابن العمّ يلْطِم خدّهُ وليس إلى داعي النّدى بسريعِ

حريصٌ على الدنيا مضيّعٌ لدينهِ وليس لما في بيته بمضيعِ

وتقدير الكلام: هو سريع، هو حريصٌ، فحذف المسند إليه، تطهيرا للسان وصونا له عن ذكره، أو لتأتي الإنكار عند الحاجة كما ذهب إليه الشرّاح.(٥)

---

(١) ينظر الإيضاح ص٤٤

(٢) ينظر البيت في الإيضاح شرح وتحقيق عبد المنعم خفاجي ص٤٤ مكتبة المعارف ط١ ١٤٢٦/٥/٢٠٠٦م.

(٣) ينظر السابق نفسه ومفتاح العلوم ص٣٦٣.

(٤) الإيضاح ص٤٤ والمفتاح ص٣٦٢/٣٦٣.

(٥) ينظر إيضاح الإيضاح لجمال الدين الآقسرائي ج١ علم المعاني ص٣٧٩ وما بعدها بتصرف.

ولم يكن الحال في تلقّي القرآن الكريم المعجز أحسن حظا من الشعر، ففي قوله تعالى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}(١) ، وقوله {وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ}(٢) ، والتقدير: هم صم بكم عمي، وهي نار حامية، فحذف المسند إليه؛ لغرض الاختصار، أو للادعاء بأنّ الخبر لا يصلح إلا له. (٣)

هكذا غافلين عن السياق القرآني الذي يمهّد لهذا الحذف ويجعل منه أبعادا نفسية لا تكون مع الذكر هكذا {الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ} بأسلوب التفخيم والتصعيد والإبهام الذي أعقبه بالبيان؛ لما يقع فيها من الأحداث الجسام والتي منها {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} إشارة إلى الاضطراب والرهبة والشدّة، وينقسم الناس حينئذ إلى فريقين {فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ}

ثم ختمت السورة الكريمة بقوله {نَارٌ حَامِيَةٌ} وفي الحذف تهويل شديد وتخويف وهزة نفسية عنيفة، لا تكون مع ذكر المسند إليه.

ولم يغفل النحويون السياق بمفهومه الواسع فنجد لابن هشام النحوي مثلا إشارة بليغة في بيانه لأدلة الحذف فيقول "إن دليل الحذف نوعان أحدهما غير صناعي، وينقسم إلى حالي ومقالي، والثاني صناعي، وهذا يختص بمعرفته النحويون لأنه إنما عرف من جهة الصناعة" (٤)

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧١.

(٢) سورة القارعة الآية ٣/١

(٣) ينظر إيضاح الإيضاح ج١ ص٣٨٢.

(٤) ينظر مغنى اللبيب لابن هشام الأنصاري تح/ محمد محي الدين عبد الحميد ج٢ ص٦٩٤ بتصرف يسير/ المكتبة العصرية صيدا بيروت ١٤١١هـ/١٩٩١م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقوله غير صناعيّ لفتة حسنة إلى الأغراض والمقاصد الفنية التي تخضع لمشاعر المتكلّم ووجدانه وتختلف باختلاف السياقات والمقامات المتنوعة.

القدامى من علماء العربية كانت لهم توجيهات سديدة حين يخرج الكلام عن النمط المألوف في الصياغة والإسناد وقد أحسنوا إذْ ربطوا هذا الخروج بالمعنى والغرض المراد، كما وجّه الخليل بن أحمد بناء الكلام على إيقاع الفعل على المفعول من العبارة في قول الشاعر:

إذا تغنّى الحمامُ الوُرْق هيّجنِي ولو تغرّبتُ عنها أمَّ عمّارِ

" لمّا قال هيّجني عُرف أنه قد كان ثمّ تذكّر لتذكرة الحمام وتهييجه، فألقى ذلك الذي قد عُرف منه على أمّ عمّار، كأنه قال هيّجني فذكّرني أمَّ عمار"(١) أي أنّ الشاعر نصب أمّ عمار على المعنى " كأنّه قال: وذكّرني الحمام أم عمار؛ لأنّ قوله: هيّجني هو تذكيره إياه، لأنه إذا هيجه فقد ذكّره"(٢).

(١) الكتاب ج١ص ٢٨٦. والبيت للنابغة الذبياني.
(٢) ينظر شرح أبيات سيبويه ص٩٣.

(٦)

القصْر

القصْر نمط من أنماط التراكيب الأسلوبية الفنيّة، ينبني عليه الكلام؛ لغرض أساسيّ وهو تقوية المعنى وتمكينه، والفرق بينه وبين الإثبات من غير قصر أنّ فيه مزيّة الزيادة في الإفادة مع الإثبات بالتخصيص، سواء أكان تخصيص صفة بموصوف أو تخصيص موصوف بصفة، وهو الأمر الواضح من تعريف العلماء للقصر اصطلاحا، حيث حدّه بعضهم بقوله:

"جعْل أحد طرفي النسبة في الكلامسواء كانت إسنادية أو غيرها مخصوصا بالآخر بحيث لا يتجاوزه إما على الإطلاق أو بالإضافة بطرق معهودة "(١).

ولقي هذا الباب في مدرسة التقعيد كثيرا من الضيم والإجحاف، وكثرت فيه التقسيمات الجدلية التي لا تخدم الفكر والفنّ بحال من الأحوال، فتكلّف البلاغيون تقسيمه باعتبار الحقيقة والواقع إلى قصر حقيقي وإضافي، والإضافي باعتبار حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام، قصر قلب، وإفراد، وتعيين، وهو الأمر الفلسفي المجرّد الذي لا يعني دارس البلاغة ومتذوّق الأدب في شيء.

القصْر في حقيقته أسلوب حجاجيّ فنّي له مقامات تستدعيه، وسياقات ترتكز عليه؛ لخاصية النفي والاستثناء فيه، والفروق الدقيقة بين طرقه الدالة على القصر، والتي تظهر مزاياها في الاستعمال، حيث مقام يصلح فيه النفي والاستثناء الصريح ومقام آخر يصلح فيه إنما التي تحمل النفي ضمنا، ومقام ثالث يصلح فيه تقديم بعض أجزاء الكلام على بعض، فتظهر فيه مزيّة الاختصاص والحصر والاهتمام، ولكل طريق خواصه وبلاغته.

---

(١) الكليات أبو البقاء الكفوي تح/عدنان درويش ومحمد المصري مؤسسة الرسالة بيروت ط٢/١٤١٩هـ/١٩٩٨م ص٧١٦/٧١٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ففي مقامات الجدل والإنكار يصلح طريق النفي والاستثناء، وفي مقامات التعريض والتورية مع قوّة الإثبات تصلح إنما، وفي مقام العناية والاهتمام يصلح تقديم بعض أجزاء الكلام على بعض وهكذا.

وفي القرآن الكريم نجد تباينا كبيرا في استعمال كل طريق من هذه الطرق، وقد استقرأ عبد القاهر الجرجاني جانبا منها، فلاحظ أنّ (إنما) تجري في الأمور المعلومة التي لا يجهل حقيقتها المخاطب، بخلاف أسلوب النفي والاستثناء الذي يقع في مقامات الإنكار والتكذيب، أو ما ينزّل هذه المنزلة؛ لأغراض بلاغية، تفهم من السياق النصّي للكلام.

والغرض من كلامنا أن نبحث أسلوب القصر ومزاياه من خلال الرؤية الفنية، والقيمة النفسية، والظلال الموحية الكامنة خلف ستار الصياغة، لا أن نقف به عند حدود التقسيمات المنطقية والقولبة الصارمة، التي لا تجدي نفعا عند دراسة النص الشعري، كالحديث عن القصر إذا كان للإفراد أو القلب أو التعيين، فإنّ الدراسة النصّية الشعرية قد لا تعترف كثيرا ولا تعبأ بمثل هذه المنطقية الجامدة، وإن بحث النص الأدبي من هذه الزوايا في عالم الشعرية هو بحث متضائل للغاية، بل قد يميت النصّ من حيث يراد له الحياة.

(٧)

الإيجاز والإطناب

ذكر الجاحظ أن العرب والعجم يميلون إلى مدح الإيجاز والاختصار، فيقول في رسالة "البلاغة والإيجاز": "درجت الأرض من العرب والعجم على إيثار الإيجاز وحمد الاختصار، وذم الإكثار والتطويل والتكرار وكل ما فضل عن المقدار" (١)

كما أشار الجاحظ من خلال ثقافته الواسعة بالأمم "وجملة الأمر أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس" (٢) وحاول الجاحظ (ت٢٥٥هـ) مع ذلك أن يفاضل بين طريقة العرب والفرس "وفي الفرْس خطباء، إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي، وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علم الأول وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم، وكل شيء عند العرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام .... فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا" (٣)

وقال الحاتميّ ت ٣٨٨هـ: "وقد تصفحّت صحف البلاغة واستقريت أساليب البيان والفصاحة، فوجدت العرب أرباب الكلام، وملاّك رقّ المعاني والألفاظ، إيجازا في حال الحاجة إلى الإيجاز، وإطالة وتوسّعا عند الحاجة إلى الإطالة والإسهاب، واتساعا لما انفردت به لغتهم من دون اللغات من أصناف البديع، كالتجنيس والتطبيق والاستعارة والإشارة..." (٤)

---

(١) ينظر رسائل الجاحظ ج٤ ص١٥١.
(٢) ينظر البيان والتبيين ج٣ ص١٣.
(٣) ينظر البيان والتبيين ج٣ ص٢٩.
(٤) حلية المحاضرة للحاتمي ج١ ص ١٢٤تح/ د. جعفر الكتاني/ دار الرشيد للنشر/ العراق ١٩٧٩م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والإيجاز اصطلاحا – كما عند السكاكي–"هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط" والإطناب "هو أداء المقصود بأكثر من عباراتهم سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل"(١)

وباب الإيجاز والإطناب من أخص خصوصيات علم المعاني لا يمكن فهمه في إطار الجملة ونظمها وإنما الواجب أن يدرس وفق النص الكليّ ووفق المقامات والمقاصد، وسياق الكلام هو الحكَم والموجِّه.

يقول السكّاكي: "هذا وقد تليت عليك فيما سبق طرق الاختصار والتطويل فلئن فهمتها لتعْرفنّ الوجازة متفاوتة بين وجيز وأوجز بمراتب لا تكاد تنحصر والإطناب كذلك...وذكرت أيضا الاختصار والتطويل مقامات قد أرشدت بها إلى مناسبات فما صادف من ذلك موقعه حُمِد وإلا ذُمّ وسمّي الإيجاز إذ ذاك عِيّا وتقصيرا والإطناب إكثارا وتطويلا"(٢)

وقد ذهب الشيخ أمين الخولي – رحمه الله – إلى أنّ الأوْلى في الحُكم على الإيجاز والإطناب باعتبار غرض الأديب كله وكيف تناوله وهل أسهب في ذلك أو أوجز. (٣)

لا يُفترض سلفا في المبدع أنه يفضل الإيجاز أو يؤثر الإطناب، بل إن المتكلّم البليغ يترك المعاني على سجيتها لترتدي ثوب الإطناب حينا وثوب الإيجاز حينا آخر ولا تعارض بينهما، فلا الإيجاز بمحمود في كل موقع ولا الإطناب بمحقق غايته في كل كلام.

لنقرأ قول الله تعالى (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ) (٤)

---

(١) ينظر المفتاح تح/ أكرم يوسف ص٤٩٣.
(٢) ينظر المفتاح تح/ أكرم يوسف ص٣٩٣/٣٩٤.
(٣) ينظر مناهج تجديد ص١٦٦-١٦٧.ط١ دار المعرفة ١٩٦١م.
(٤) سورة طه الآية ١٧/١٨

تناول البلاغيون الآيات الكريمة في مبحث الإطناب مع ملاحظة أن الآيات قد جمعت بين الإطناب والإيجاز، وتفسير الإطناب، أن الجواب لم يَرِد في الظاهر مطابقا للسؤال المطروح (وما تلك بيمنك يا موسى) لأن الجواب الذي يتوقعه المتلقي أن يقول (عصىً) أو (هي عصىً) لكنه زاد في الجواب عن الحد المتوقع بإضافتها إلى نفسه –عليه السلام– (عصاي) ثم اشفعه بالحديث عن منافعها (أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي) هذا في مقام اللّطف والقُرب والتجلّي والاستغراق في أنوار الجلال، ثم أحس بأنه تجاوز الحدّ المقدّر فعبّر بالإيجاز البديع (ولي فيها مآرب أخرى) فأجمل كل ما يمكن إضماره في فوائد العصا.

ولعلّ الله تعالى ألهمه هذا الجواب المفصّل إلهاما مقصودا لما سيؤول إليه أمر هذه العصا وتتحقق به المعجزة الإلهية فيما بعد (قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى)

ولا تفهم بلاغة الإطناب إلا في إطار السياق الذي سيق فيه الكلام، حيث سار موسى –عليه السلام– بأهله، وآنس في الطريق نارا فلما اقترب منها كانت هناك التجليات والمنح والنداء الأعلى (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ) فناداه الجليل نداء ملاطفةٍ وموادة (إنّي أنا ربك) مؤكدا بضمير الفصل (أنا) المحقق لتثبيت قلب النبيّ موسى –عليه السلام– بالإضافة التي فيها معنى التشريف والتعظيم والإيناس (ربك) فأمره بخلع نعليه لمناسبة الطّهر والجلال أولا ثم توّجه بتاج الجمال (وأنا اخترتك) ملاطفا إياه بصيغة الإفراد (أنا) دون (نحن) كما أسند الاختيار إلى ذاته المقدسة فهو اختيار إلهيّ مقدس ثم أمره بجملة من

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الأوامر بعد النداء والتلطّف (فاستمع لما يوحى) (فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) أمره بالعبادة الخالصة وإقامة الصلاة التي هي في حقيقتها ذكر وتسبيح وتكبير.

ومن ثمّ ندرك تهيئة المقام لإطالة الكلام بقوله (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ) لندرك بهذه القراءة أهمية الإطناب وضرورته في بعض المقامات دون بعض، فضلا عن الشعور النفسي بطيب الحديث ولذّته، وقد يسألك سائل وأنت له محب راغب فتطيل له الجواب لأنك تأنس إليه وتطيب نفسا معه، ويسألك آخر فتضيق بسؤاله ذرعا فتجيب بأقل جواب ممكن لأنك راغب مدفوع عنه.

وتقرأ مطلع سورة المؤمنون (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (١)

فتروعك بلاغة الإطناب المشحون بلطائف الإيجاز، وقد شوّق مطلع السورة الكريمة إلى ضرورة إشباع القارئ المتطلع المتلهّف لمعرفة هؤلاء الذين أسند إليهم الفلاح تحقيقا (قد أفلح المؤمنون) فإذا ما أتي التفصيل والبيان صادف نفوسا متعطشة إلى المعرفة على نحو من التفصيل، وقد بنيت الجمل المفصلة كلها بالاسم الموصول الذي يعمّق الصلة ولا ينفك عنها، كما أن جملة الصلة بطبيعتها متماسكة تماسكا محكما.

(١) سورة المؤمنون من الآية ١/١١

كما أكّد الجمل جميعها بضمير الفصل المكرّر وله دور دلاليّ ملحوظ كما له دور أيضا في التماسك النصّي بدرجة بيّنة، على أن جملة هذه الأوصاف التي اتصفوا بها تنوعت بين الصفات المتعلقة بعبادة الله تعالى (الصلاة / الزكاة) والأخرى الأخلاقية الاجتماعية (الإعراض عن اللغو/ حفظ الفروج في غير ما أحل الله / رعاية العهود والأمانات).

واللافت للذهن أنه أحاط الصفات الاجتماعية الأخلاقية بعبادة الصلاة، (الذين هم في صلاتهم خاشعون) ثم ختمها بقوله (والذين هم على صلواتهم يحافظون) وفيه دلالة على أهمية الصلاة والمحافظة عليها وإقامتها بخشوع على الوجه الأكمل فهي السبيل إلى إصلاح السلوك وسلامة الجانب الاجتماعي، وإن عظمة هذا الدين في عدم الفصل بين الشعائر الدينية والسلوك الاجتماعي العام.

ولا يخفى أثر بناء الصيغ في النظم الجليل فقد جاءت كلها بصيغة الجمع (خاشعون –معرضون–فاعلون – يحافظون –راعون) وهو ملحظٌ مهم لأن الهداية الجماعية أولى وأجدى من الهداية الفردية المحدودة الأثر.

كما روعي في كل موصوف الصفة المناسبة له المحققة لغايته فقرن الخشوع بالصلاة، والإعراض باللغو، والزكاة بالفعل، والحفظ بالفروج، والرعاية للعهود والأمانات.

وتقديم الخبر على المبتدأ للاهتمام والعناية بكل مذكور على حدة، كما روعي في التفصيل أن يكون جامعا للخصال الحميدة فإن تحققت هذه الآيات العشر في مجتمع وسعتهم وكفتهم في الدنيا والآخرة ودانت لهم الدنيا راغمة.

ومن عجائب البيان القرآني أن يكتسي التعبير ثوب الإطناب والإيجاز في وقت واحد، وتأمل –إن شئت–قوله تعالى:

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (١)

فالبيان هنا مبني على التفصيل والإطناب وفي ذات الوقت مشحون بالإيجاز وكل كلمة فيه تختزل مشهدا تصويريا حيّا نابضا متحرّكا، فضلا عن الانفعالات النفسية المشعّة من الألفاظ والجمل والعبارات (وراودته /غلّقت الأبواب / هيت لك) (معاذ الله / إنه ربي / أحسن مثواي / إنه لا يفلح الظالمون).

ودائما ما يجامع الإطناب الإيجاز في القرآن الكريم دون فصل بينهما، فهما وصفان متلازمان للأسلوب الواحد، ولا يمكن الفصل بينهما في الأسلوب العربيّ، إلا باعتبار الموضوع فنقول مثلا إن الموضوع هنا ذكر على نحو من التفصيل والبيان، بينما ذكر هذا الموضوع على نحو من الإيجاز الذي لا حشو فيه ولا تفصيل، بل إن التفصيل نفسه يقع على مستويات باعتبار الحاجة والسياق مع مراعاة التوازن الأسلوبيّ كمًّا وكيفًا.

فإذا ما قرأنا قصة صالح -عليه السلام-في سورة (الشمس) مثلا سنجدها اكتست سربال الإيجاز والاختصار بالقياس إلى ذكرها في موضع آخر من مواضع القرآن، ومع ذلك ذكرت بأسلوب تفصيليّ شمل القصة كلها بداية ونهاية (كذبت ثمود بطغواها .....فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها) فهي جامعة في بنائها الأسلوبي بين الإطناب والإيجاز بالاعتبارات التي ذكرتها.

إن المتأخرين الذين قعّدوا البلاغة حين تحدثوا عن الإيجاز والإطناب ذكروا ما اصطلحوا عليه بالمساواة كي تكتمل عندهم القسمة العقلية

---

(١) سورة يوسف آية ٢٣

المساواة والإيجاز والإطناب، بل أشاد البعض بها أكثر في بناء الكلام عليها، وعند البحث في النصوص الأدبية نجد أن الغرض لا يتعدى استيفاء القسمة العقلية؛ لأنّ المساواة هي أصل المعنى بالقياس إلى بلاغة الإطناب والإيجاز، ولكونها المستوى الطبيعيّ للكلام الذي يخلو من المكونات الأسلوبية والمحاسن الجمالية.

ودائما البلاغة لا تعمل في أصل المعنى ولا تطيل النظر فيه بمقدار إطالتها النظر وبحثها فيما خالف الأصل والمعهود الأسلوبي بالإيجاز حين يسقط من الكلام حرف أو كلمة أو أكثر، وبالإطناب حين يزاد حرف أو كلمة أو جملة، احتراسا أو تذييلا أو اعتراضا أو تكميلا أو غير ذلك، بمعنى أن التفاوت في الإبداع لا يكون بالمساواة لأنها أصل المعنى الذي لا تفاضل فيه ولا بحث فيه عن ميزات وأسرار، فالبلاغة تدور حول نقص الألفاظ عما يقتضي الأصل، أو زيادتها عن الحد المطلوب في الظاهر، حينئذ يتساءل الدارسون عن دواعي الحذف والزيادة وتقديرهما في السياق والمقام.

الإطناب يتسع لرؤية جديدة تنطلق به من عقال الجملة النحوية (بسيطة أو مركّبة) -على أهميتها-اعتبار الموضوع والسياق والاعتبارات النفسية، وكل هذه الأمور الأسلوبية تُساق وفق تقدير المبدع وفي ضوء علاقات الكلام ومقتضياته وأحواله.

والحذف والاختصار في هذه الرؤية هو التوفيق بين "مقررات النظام اللغوي وبين مطالب السياق الكلامي الاستعمالي"(١) وإنّ ثقافة الإيجاز هي أيضا بمثابة الفاعل الغائب الذي "يلعب دورا أساسيا في إنتاج الصياغة وإن كان غير مباح له أن يظهر بشكل مباشر بأي حال من الأحوال"(٢) ولا شكّ

(١) اللغة العربية معناها ومبناها د. تمام حسان ص٢٩٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١٩٨٧م.
(٢) الحداثة عند عبد القاهر د. محمد عبد المطلب ص١١٦: ١١٩ الشركة المصرية العالمية للنشر ١٩٩٥م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أن عناية البلاغيين بتراكيب الكلام أوسع بكثير من عناية النحويين فالنحويون غالبا "لا يعنون بالتركيب عناية محمودة في الفصل بين العبارات والحذف والتكرار والتقديم وسائر الهيئات التي يحدثها لك التأليف"(١) وكما يقول عبد القاهر الجرجاني "فما من اسم أو فعل تجده قد حذف إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به"(٢) وما يقال في الحذف والاختصار يقال مثله في الذكر والإطناب فإنّ للذكر والإطناب في بعض المواضع من البهجة والأنس والفخامة والأبّهة ما ليس للحذف كما في قوله تعالى مثلا في سورة الإخلاص (قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد) ولو قيل في غير القرآن: قل هو الله أحد الصمد لعدمت الذي أحسست بوقعه في نفسك على مقتضى النظم القرآني المعجز.

ويمكن معالجته في القرآن الكريم بصور مختلفة، كاعتراض قصة في قصة، والخروج من الموضوع الأصلي إلى الموضوعات الجانبية مما لا يبتعد كثيرا عن مفهوم الإطناب،ويعالَج الإطناب كحدث فكريّ وظاهرة نصّيّة.

دراسة الإطناب في حدود الجملة تضييق لحقيقته وبلاغته والصور التي ذكرها البلاغيون للإطناب – كالاحتراس والتكميل والتذييل والاعتراض والبيان بعد الإبهام والعام بعد الخاص ونحو ذلك –إنما هي قيود في الكلام وهي من صميم غرض المتكلّم ومن صميم نظْم الفكر قبل نظم العبارة وهي هنا ذات نكات وأغراض جزئية في سياق الجملة الواحدة والأولى أن يتوجّه النظر إلى مقامات الكلام وسياقه العام والغرض منه باعتبار الموضوع في صورته الكلّية التي بني عليها من أساسه.

---

(١) نظرية المعنى في النقد العربي د. مصطفى ناصف ص١٥ دار الأندلس بيروت ١٩٦٥م.
(٢) دلائل الإعجاز ص ١٥٣ وينظر الخصائص لابن جني ج٣ ص٥٦.

وأضرب مثالا لما أقول بقراءة سورة (القلم) وهي في غرضها العام وسياقها الرئيسيّ تهدف إلى الذبّ والدفاع عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ورسالته السماوية (ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) وإلى هنا تمّ المراد الذي نزلت له السورة، ثم وقع الفصل باعتراض كلام في كلام على نحو من التفصيل والإطناب بذكر قصة أصحاب الجنة كاملة من بداية الحدث إلى نهايته (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

وبعد هذا الكلام المعترض يرجع إلى الغرض الأساسيّ للسورة (فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

مَكْظُومٌ * لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ).

ولا أريد أن أشرح العلائق والوشائج بين الموضوعات التي عرضتها السورة الكريمة وبين الغرض العام فهو مما يحتاج إلى دراسة مستقلة، تنظر في بناء السورة الكليّ والوقوف على علاقة الأجزاء بعضها ببعض.

إعادة النظر في دراسة الإطناب على هذا النحو أجدى من دراسته في إطار الجملة، للوقوف على طبائع الخطاب القرآني وطرائق معالجته للموضوع والأفكار المساندة التي تنفصل عن الموضوع ظاهرا بينما عند التحقيق نجدها ذات حضور وانسجام مع الغرض والمقام.

(٨)

باب الوصل والفصل

هذا الباب على أهميته وارتباطه بنسيج المعاني وفهم علاقات الجمل بعضها ببعض إلا أنّ تناوله عند المتأخرين هيمنت عليه النزعة العقليّة المنطقية بصورة جليّة مما أضاع كثيرا من قيمته الفنّية والتوصّل إلى وشائج القربى والصلات الدقيقة بين الجمل ومقاصدها في سياق الوصل أو الفصل، ولا تجد عند التقعيديين كلاما يفي بحقيقة هذا الباب العظيم سوى إشارتهم الخاطفة إلى أن الفصل والوصل هو عين إنسان البلاغة، وكما قال السكّاكي نفسه في بيان التمهيد لهذا الباب إنه "لمحكّ البلاغة، ومنتقَد البصيرة، ومضمار النظّار، ومفاضل الأنظار، ومعيار قدْر الفهم، ومسبار غوْر الخاطر..." (١).

ومع ذلك جاء تناولهم تناولا عقيما يقوم على مجرّد التقسيم والبحث في العلاقات المنطقية العقلية التي ابتعدت كثيرا عن جمال الفنّ الإبداعي والتي تكون العلاقات فيه خفيّة وسياقيّة ووقف بحثهم عند النظرة المحدودة التي لا تتعدى إطار الجملتين كما هو الحال في مدرسة التقعيد وقد هيمن عليها سلطان العقل والمنطق وتأخر فيها سلطان الفنّ والذوق.

وما زال كلام عبد القاهر –عندي –هو العُمدة والسنَاد في دراسة هذا الباب وكلامه أوقع وألطف وأقرب إلى روح الأدب والفن وقد كان كلامه في هذا الباب أشبه ما يكون بقانون الكلام البليغ والاهتداء إلى قانون المعاني في تقاربها وتباعدها حين يكون الكلام موصولا تارة ومفصولا أخرى.

وقد أطال عبد القاهر النفَس في شرح أصول هذا الباب الجليل ووضعَ الأسس البنائيّة فيه وضعا محكما لا يكاد يختلّ منه شيء وكلامه كان دقيقا

---

(١) ينظر المفتاح ص ٤٥٩ تح/ أكرم يوسف.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وواضحا للغاية، وليت البلاغيين الذين أتوا بعده استكملوا ما بدأ وانطلقوا من النقطة التي انتهى إليها حيث التطبيق على النصوص والشواهد وقراءتها في سياقها ومواردها.

وقد أقام عبد القاهر النظر في هذا الباب على ركيزة أساسية، وهي مبدأ الاتصال التامّ أو الانفصال التام، وهذا هو معيار الفصل، وما كان واسطة بين الأمرين، وكان له حال بين حالين، وذاك هو معيار الوصل، ويترتب على هذه الفكرة عمليّة الانسجام والترابط الفكري والدلالي على مستوى النصّ، ومقاصد الاستعمال، والمعاني المعتبرة وراء التراكيب. (١)

والبحث في العلاقات المسوّغة لعطف الكلام بعضه على بعض أو فصله، ليست عملية آلية مطرّدة، ومن هنا تدقّ وتخفى ولا تلين للمتلقّي من أول النظر في الكلام، وفيها نوع خفاء في بعض المواضع؛ مما يجعل المتلقّي للنصّ جادّا في البحث وراء خيوط الكلام ونسيجه؛ باحثا عن مسوّغ العلاقات بين المتعاطفات في فكر المبدع، وما يحفّه من سياقات قبل أن يكون كلاما ملفوظا، "ولصاحب علم المعاني فضل احتياج هذا الفن إلى التنبيه لأنواع هذا الجامع والتيقظ لها لا سيما النوع الخيالي فإن جمعه على مجرى الإلف والعادة بحسب ما تنعقد الأسباب في استيداع الصور خزانة الخيال وأنّ الأسباب لكما ترى إلى أي حدّ تتباين في شأن الجمع بين صور وصور"(٢)

فإذا ما قرأنا مثلا قول الشاعر:

لا والذي هو عالمٌ أنّ النّوى صبرٌ وأنّ أبا الحُسين كريمٌ (٣)

---

(١) ينظر الدلائل ص٢٤٣ وينظر عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة ص١٧١.

(٢) ينظر المفتاح تح/ أكرم عثمان ص٤٦٨/٤٦٩.

(٣) من قصيدة بمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم ينظر ديوان أبي تمام فسر ألفاظه اللغوية اللغوية محيي الدين الخياط/ ص ٢٩٩ بدون تاريخ.

قد لا نعثر في أوّل وهلة على العلاقة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى، وقد لا يستسيغ العقل فكرة العطف هنا باعتبار البعد الشديد والتنافر بين الجملتين في الظاهر، بينما قراءة البيت في سياقه، وفي ضوء العلاقات النفسية والشعورية، يمكن أن تُوجِد له مبررا وقبولا وموقعا لطيفا، فضلا عن براعة التخلّص والانتقال من باب إلى آخر، وهو الشاعر المتطلع المتشوق إلى العطاء الجزيل، والذي يبلغ في قرارة نفسه الظامئة مقدار إزالة الوحشة، وتبدّل الحال من القهر والمرارة ومفارقة الأهل والوطن إلى سعادة النفس وارتياحها بعد العطاء والجود.

ولا مسوّغ من الجهة الفنية للفصل بين حروف العطف في الأسرار والبحث وراء مزايا الكلام، وتعليلُ البلاغيين بخصوصيّة حرف (الواو) فيه تسامح كبير، وإهدار لقيم الفن والشعر والإبداع؛ لأنّ الكلام الذي يدقّ ويلطف مع الواو وغيرها من الحروف أمر يخضع لبناء الكلام، وترتيب بعضه على بعض، وعبقرية المتكلّم ومراده من الكلام بالفصل تارة، وبالوصل أخرى وإيثاره لحرف دون حرف وراءه فكر عميق، ومعان تداولية كثيرة.

الفصل والوصل في حقيقته منهج في بناء الكلام، قد لا يخضع لقاعدة منطقية صارمة، وإنما يرجع إلى اعتبارات ومقاصد فكرية، وفق ما يومئ إليه المتكلّم، ويومض إليه من خفي الإشارات والمعاني النفسية.

انظر إلى قول بشّار مثلا:

بكِّرا صاحبيّ قبل الهجيرِ إن ذاك النجاحَ في التبكير (١)

وقد قال له خلف الأحمر لو قلت يا أبا معاذ: بكّرا فالنجاحُ، كان أحسن.

---

(١) قاله بشار في سَلَم بن قتيبة ينظر ديوان شعر بشار بن برد جمعه وحققه السيد بدر الدين العلوي ص ١٢١ دار الثقافة بيروت ط١٩٨١م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ولم يكن بناء المعنى على العطف بالمقصود الذي يومئ إليه بشّار، وأسس معناه عليه رأسا، وجاء رده مفصحا عن هذه الحقيقة التي لا يهتدي إليها أكثر الناس "إنما بنيتُها أعرابية وحشيّة، ولو قلتُ: بكّرا فالنجاح، كان من كلام المولدين".

وحين تقرأ قوله تعالى: (الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)(١) فتجد أن الجمل المتتابعة بُنيت بناء متماسكا لأنها تعالج فكرة واحدة، فلا مسوّغ للعطف هنا لأنّ مقصود الكلام، وبناء المعنى المراد على هذا النحو من التلاحم والاتصال فلم تكن الجملة الثانية إلا ممكّنة للمعنى في الجملة السابقة عليها، وهو ما أبان عنه الزمخشري بقوله: "إن قوله (ألم) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و(ذلك الكتاب) جملة ثانية، و(لا ريب فيه) جملة ثالثة، و(هدى للمتقين) رابعة، وقد أصيب بترتيبها مِفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة"(٢)

وفي قوله تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٣)

---

(١) سورة البقرة الآية ٢/١

(٢) الكشاف ص٣٧ دار المعرفة بيروت لبنان ١٤٣٠ه/٢٠٠٩م ط٣ (مجلد واحد).

(٣) البقرة الآية ٢٥٥

قال في الكشاف: "فإن قلت: كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي من غير حرف عطف؟ قلت: ما منها جملة إلا وهي واردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه والبيان متحد بالمبين، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب: بين العصا ولحائها، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه، والثانية لكونه مالكاً لما يدبره، والثالثة لكبرياء شأنه، والرابعة لإحاطتهبأحوال الخلق،وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة، وغير المرتضى، والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله وعظم قدره" (١)

وفي قوله تعالى (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (٢)

نجد ثلاث جمل متواليات وقد الْتحم بعضها ببعض؛ حيث كانت جميعها تعميقا لفكرة واحدة، هي التأكيد على مفهوم الربوبية والوحدانية، وما يترتب عليهما من الامتثال للأمر بالعبادة، فمن موجبات الربوبية (ذلكم الله ربكم) الوحدانية (لا إله إلا هو) ومن موجبات الوحدانية، أنه سبحانه (خالق كل شيء) وهكذا يلتحم الكلام بعضه ببعض، ويشكّل لحمة واحدة متماسكة لا انفصام بينها؛ لتؤدي الغرض المراد منها على الوجه البليغ المعجز، فلا حاجة للعطف هنا بحال من الأحوال.

وإن شئت المزيد والبيان فأنعم النظر في قوله تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٣)

---

(١) الكشاف ص١٤٥ دار المعرفة بيروت لبنان ١٤٣٠ه/٢٠٠٩م ط٣ (مجلد واحد).
(٢) الأنعام ١٠٢
(٣) التوبة آية ٧١

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فتجد جملة (يأمرون بالمعروف) مفصولة عن ما قبلها؛ لتكون تفسيرا لمفهوم الولاية التي أرادها الله تعالى؛ كي يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله في جملتها من لوازم الولاية، والرابطة الحقيقية بين المؤمنين، ثم رتّب على ذلك قوله (أولئك سيرحمهم الله) بالفصل عن ما قبلها أيضا؛ لتكون بيانا للجزاء الأوفى من الله تعالى وتصدير الجملة بالإشارة (أولئك) للدلالة على أنهم المستحقون دون غيرهم للرحمة الإلهية، كما فُصلت جملة التذييل (إن الله عزيز حكيم)؛ لكونها تعليلا لاستحقاقهم الرحمة، وهو وعد لا يتخلّف؛ لأنّ من عزّ حكَم ولا معقّب لحكمه.

الفصل في فلسفة عبد القاهر يعني أنّ الجملة الثانية متصلة اتصالا وثيقا بما قبلها، فتكون بمنزلة التوكيد والصفة والبدل ونحو ذلك فلا تحتاج إلى عاطف؛ لأنّ ما بينهما من الاتصال الطبيعيّ أغنى عن وجود رابط يحُول بين المتلازمين، كما هو واضح في الآيتين السابقتين.

هذا يشير إلى أن الأمر في باب الفصل والوصل قائم على دقة المعنى، وإصابة غرض الكلام، وأعتقد أنّ مثل هذه الدقائق هي الخصائص الحقيقة بالنظر الدال على دقّة هذه اللغة الشريفة، وحساسية التراكيب الإبداعية فيها، وأنّ المعاني كالخبيئة المتوارية خلف التراكيب، يهتدي إليها المتمرسون وحدهم في هذه اللغة.

ويمكن أن تتسع دراسة الفصل والوصل لما هو أشمل من ذلك ممّا يساعد على تدبّر معاني الكلام، وحسن قراءة النص قراءة متماسكة، والاهتداء من خلاله إلى مقاصد الوقف والابتداء، ومتى يسوغ للقارئ المثقّف أن يقف على المعاني، ومتى يسوغ له أن يصل المعنى الأوّل بالمعنى الثاني، وهي جملة أمور لا تنفصل عن معاني النحو، وللذوق دخل كبير في تقديرها وحسن تأتيها.

والوقف والابتداء درس من أهم دروس علوم القرآن الكريم، والخطأ في تقديره جريمة لا يُستهان بها، بل هو علم ميزان الكلام وارتباط بعضه ببعض، وقد ارتكب أكثر القرّاء المعاصرين -لجهلهم بهذا الباب-أخطاء جسيمة؛ لقصدهم التطريب والتنغيم ومدّ الصوْت؛ للتأثير على عوامّ الناس الذين لا يشغلهم البحث في المعاني بقدر طربهم للنغم والإيقاع، ولهؤلاء القرّاء بِدَعٌ في الوصل والابتداء، عارية عن المعاني النحوية تماما، وإذا خرج الكلام عن دائرة المعاني النحوية فسَدَ واختلّ لا محالة.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

(٩)

الإنشاء

الكلام على ضربين خبر وإنشاء، والإنشاء منه طلبيّ كالاستفهام والأمر والتمني، وغير طلبيّ كالقسَم والتعجب وصيغ المدح والذم وغير ذلك، وقصر المتأخرون الحديث على الأساليب الطلبية؛ باعتبار تعدد الأغراض فيها، بخلاف غير الطلبية -على زعمهم-لأن معناها غالبا لا يتجاوز المعاني الأصلية الحقيقية (١)

ولم يتعدّ نظرهم دراسة الصيغ الطلبية من حيث الأوضاع اللغوية، ثم سرد بعض المعاني المجازية التي تُرشد إليها كل صيغة.

والكلام الخبريّ وإن كان هو الأصل الذي يُبنى عليه الكلام، فإن الإنشاء لا يخلو منه نص بأي حال، وللأسلوب الإنشائيّ مزايا وفوائد جمّة، وهو في النص بمثابة العدول أي عدول الكلام والانتقال به من الخبرية المعهودة إلى الإنشائية؛ لأغراض ترتبط ارتباطا وثيقا بالنفس والوجدان، فالإنشاء في حقيقته هو انفعالات نفسية، وجمل مشحونة بالمعاني الوجدانية والانفعالات الشعورية.

أغفلت البلاغة التقعيدية كثيرا من القيم الفنية، والحمولات النفسية، والظلال المتوارية خلف ستار الصيغ الإنشائية المختلفة من الأمر والنهي والنداء والاستفهام والتمني والقسَم والتعجّب، فوقع بحثهم فيها بمعزل عن السياق، والقرائن الحالية والمقامية التي تعمل في نسيج النص من أوله إلى آخره.

لا يليق بنا أن نقرأ الاستفهام في النص على أنه لمجرّد التقرير أو النفي أو الإنكار وحسْب، وأنّ النداء في هذا الموضع نُزّل فيه القريب منزلة البعيد

---

(١) ينظر المفتاح ص ٥٢٣ وما بعدها تح/ أكرم عثمان.

والعكس، وأن التمني وقع في أمر مستحيل متعذّر أو بعيد المنال، وأنّ الأمر هنا للتمني وهناك للتحدّي، غافلين بذلك الأبعاد النفسية، التي هي الأساس الذي يتوارى خلف ستار هذه الصيغ والأساليب.

إنّ هذه الأساليب هي نسيج من خيوط الوجدان، ومجموعة متراكبة من الدوافع والانفعالات، فالإنسان حين تستبدّ به المشاعر، ولا يجد من يشاركه مشاعره وآلامه، يلجأ غالبا إلى الطبيعة مِن حوله، يخاطبها كما يخاطب العقلاء، ويجاوبها ويتجاوب معها، فيقع منه نداء الأرض والسماء، كما يقع منه نداء الشجر والدواب، والجبال والوديان، والطير والحيوان والمكان والزمان، وجميع هذه النداءات ليست على حقيقتها، بغرض طلب الإقبال، إنما هي –عند التأمل– شحنات نفسية وآثار وجدانية.

الإشكال أننا نقرأ الشعر كما نقرأ النثر، ونقرأ القرآن كما نقرأ الشعر والنثر، دون مراعاة للخصوصيات والفوارق الدقيقة فنقول إن الأمر هنا كالأمر هناك، والنداء في هذه كالنداء في تلك، فكيف يُسوّغ لنا العقل أن نُسوّي بين نداء الله تعالى للأرض والسماء في قوله سبحانه (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي) (١) بنداءات المخلوقين؟!

النداء في الآية الكريمة هو نداء الحال، وشاهد القدرة، ونداء الجلال والعظمة، بينما النداء في قول امرئ القيس مثلا:

(فيا لكَ من ليلٍ كأنّ نُجومهُ) (٢)

وراءه ظلال شعرية كثيفة، ونفس تحترق من الهمّ والحسرة.

---

(١) سورة هود آية ٤٤

(٢) ديوان امرئ القيس ص١٧١ جمع وتحقيق حسن السندوبي دار إحياء العلوم بيروت ط١ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وحين نقرأ الاستفهام في قوله تعالى (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ) (١) لابد أن تكون القراءة مرتبطة بسياق الحال وقت تنزّل الخطاب، واستحضار الأبعاد النفسية التي تحفّ به، ولا يكفي أن نقول إنّ الاستفهام هنا للتقرير، لأنّ التقرير له ظلال وأبعاد نفسية كثيرة، تختلف من سياق إلى سياق، فهناك التقرير في سياق العتاب والملاطفة، وهناك التقرير في مقام نكران الجميل والخذلان، وأحيانا يكون التقرير في مقام إظهار النعمة والشرف، والإعلام بالمكان والمكانة.

وأسلوب الأمر كذلك قد يكون وراءه نفس طامحة متشوقة إلى الانعتاق من وطأة شيء ثقيل، كقول امرئ القيس أيضا:

فقلتُ له لما تمطّى بصلبهِ وأردفَ أعجازا وناءَ بكلْكلِ
ألا أيّها الليلُ الطويل الا انجلِي بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ (٢)

فنادى وأمر، ورتب على أمره ونهيه جملة خبرية منفية (وما الإصباح منك بأمثل) مغايرة لأفق انتظار المتلقّي في سياق الموقف، حيث توقّع الفرج، وزوال الهمّ مع الصبح في العادة، وهو ما لم يتحقق في خيال الشاعر، فلم يكن الأمر هنا لمجرّد التمني فحسْب، بقدر ما هو انفعال نفسي وهموم جاثمة في صدر صاحبها،لا يُنسيها قدوم ليل،ولا يُسليها صخَب نهار!

ولا أريد أن أستطرد في تتبع الأبواب والموضوعات في علم المعاني، فالالتفات مثلا لم يتعدّ إيراد الشواهد المنزوعة من سياقها ونصوصها الشعرية، مع إضافة بعض المعاني المختزلة التي تتوارثها المدونات البلاغية التعليمية، علما بأن هذا الباب وهو من أهم أبواب البلاغة، ومن أهم فنون الصناعة الشعرية الإبداعية، يتسع لأفق أوسع بكثير مما أطّره المتأخرون

(١) سورة الشرح الآية ١/٢
(٢) ديوان امرئ القيس ص١٧٣جمع وتحقيق حسن السندوبي دار إحياء العلوم بيروت ط١ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م

من دراسة التحولات الأسلوبية المتعلقة بالضمائر النحوية، كالغيبة والتكلم والخطاب، إلى البحث العميق في تجذّر هذا الأسلوب في البناء الشعري برمته، ومحاولة تتبع الأثر النفسي وراء فضاءات العدول النصية، من خلال الصيغ والجمل والتراكيب التي فارقت النمطية وخرجت على أفق ترقب القارئ، وما يتوقعه المتلقي؛ مما يحث النفس على الإثارة والبحث والتفكير في حركة الأسلوب في النصّ، وما يترتب عليه من المعاني، وما يثيره من الوحي والظلال.

ومن أخطر فنون المعاني التي أهملها المتأخرون بالإضافة على ما سبق، قيود الجملة في بناء النص، ومفهوم القيد – كما ذكره التهانوي في كشافه – هو الأمر المخصّص للأمر العام (١)

فالمفاعيل الخمسة مثلا وظيفتها تقييد وتخصيص الإسناد الفعلي، فمنها ما يقيد الزمان، وآخر لتقييد المكان، وثالث للكيفية وهلم جرّا.

وتتعدد المعاني الوظيفية التي تتعلق بالقيود من جهة الدلالة والأسرار البلاغية في ضبط سلطة المعنى في النص، إطلاقا وتقييدا وما يترتب على ذلك من فهم المقاصد المعنية، وتوجيهه التوجيه الأمثل نحو مقصود الخطاب والمراد منه، والقيود منها القيود الأسلوبية المصرّح بها في الكلام، ومنها القيود الخارجية السياقية أو المقامية، مما له دخل كبير في ضبط التأويل، وفقه الخطاب وفيه عصمة من الجنوح بالمعنى إلى عالم من المجهول.

(١) كشاف اصطلاحات الفنون ص١١٧٨.دار صادر بيروت بدون.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الخاتمة

ليس من السهل على الباحث دائما أن يقول في نهاية كل بحث قد توصلت إلى كذا وكذا من النتائج، وفي كثير من الأحيان لا يفي الباحث بحصر النتائج التي خلصت إليها دراسته، كما قد يكون مبالغا أيضا في تعداد كثير من النتائج، وربما هي من المسلمات التي ذُكرت في تضاعيف بحوث السابقين، ولكلّ بحث طبيعة خاصة تُحدّد مسار النتائج، وتحكم لها أو عليها.

وأستبق المقال لأقرر أن البحث قُصد به أن يلقى الضوء على معاناة حقيقية، وهمّ تنفعل به النفس طيلة سنوات ليست بالقليلة في مزاولة دراسة البلاغة، وتدريسها في مصادرها المختلفة، وظهرت للباحث أمور كثيرة، مرجعها واحد هو هيمنة الجانب العقليّ المنطقيّ بشكل كبير على فكر علماء البلاغة الذين يرجع إليهم الفضل في تبويب البلاغة وتصنيفها وفق هذه المسارات الفاصلة المحدّدة، والتي صارت قوانين مرسومة، وقواعد محفوظة، وكأنّما أريد للبلاغة العربيّة أن تُحجّم في هذا السياج المنطقيّ الصارم.

ومن هنا كان منطلق هذه الدراسة وهدفها، أن تضع اليد مباشرة على العِلل والأدواء ومكمن الخطر في الوقوف بالبلاغة عند هذا الحدّ؛ مما جلب عليها السّخْط والنقد وباتت – عند الحداثيّين – من مخلفات الزمن العتيد، لا تصلح للقراءة والتأويل في ظل ما استجدّ على الساحة الفكرية من معارف جديدة، كانت أجدى نفعا وأسلم في تعاطي النصوص الأدبية وتأويلها والكشف عن أوجه الجمال والتمايز فيها، ساعد على ذلك حركة التغريب الدائرة في العالم العربي والإسلاميّ على قدم وساق، وضَعْف اللسان العربيّ، وانتشار الترجمة لآداب الأمم الأخرى ونقدِها.

وليس الخطر من وجهة نظري في هذا وحده، وإنما يكمن الخطر حين يقف البعض عند حدود التراث على أنه معصوم لا يمكن تجاوزه، ومحاولة تنقيته مما لا يفيد، والإضافة إليه؛ لمواكبة حركة الزمن والفكر، وفق سنن الحياة التي لا تتخلّف.

ولا شكّ أن علم البلاغة في مرحلة التقعيد غابت فيه معالم كثيرة، وسقطت منه دروس وأبواب مهمة، عالجها القدماء أنفسهم وأهملها المتأخرون عند التقعيد والتصنيف.

غايتي التي أردتها هنا هو ضرورة التنبيه والعمل على تجديد النظر في البحث البلاغي، وتخليته من المباحث الدخيلة، وتحليته بدروس قريبة الصلة بالدرس البلاغي، ومحاولة اتساع دائرة النظر البلاغي بالتعامل مع كافة الإنتاج الفكري والأدبي، والتمييز بين معايير الكلام، ومراعاة صور الخطاب المختلفة، والتأكيد على أن البلاغة العربيّة قادرة ببحوثها على الوفاء بقراءة النص قراءة أقرب للحق والصواب، وما زالت البلاغة قادرة على قراءة جميع أنواع النصوص الكلاميّة والخطابية، فضلا عن الشعر والنثر الأدبيّ.

والغرض الأهم من دوافعي وراء تدوين هذه السطور هو التنبيه على بيان الفروق الدقيقة بين عمل البلاغة في الكلام المقاصدي، وعملها في الكلام الفني؛ لاختلاف طبيعة كل بيان، والمعايير الحاكمة له، فلا يعقل أن يكون تأويل النص القرآني مثلا وفق آلية تأويل النصوص الشعرية؛ لاختلاف مقصدية كل منهما، باعتبار ما يترتب عليهما من المعاني والأغراض.

وما نأخذه على البلاغة التقعيدية هو حرفية ونمطية القراءة، وتكرارها بشكل واحد من غير تمييز لهذه الخصوصيات الدقيقة والفصل بين ما يطلق عليه خطاب حجاجي مقاصدي، والخطاب الشعري الفني، وبينهما بونٌ شاسع.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وفي نفس الوقت الذي كثرت فيه المناهج والمذاهب المختلفة، وأَبعدت النجعة أيضا في تأويل النصوص والمغالاة والإغراق في جانبٍ على حساب جانب آخر، فمنها ما يبحث في إطار البنية والأسلوب بمعزلٍ تماما عن ملابسات الخطاب وطبيعته وسلطته، ومنها ما ينظر في الأمور السياقية ويستغرق نظره في البحث وراء هذه المعطيات السياقية باعتبار أن النصّ منتَج في ضوء الأحوال المقامية والسياقية المختلفة، ومنها ما وصل به الأمر والحال إلى النظر في النص على أنه نبتة منفصلة عن الذات والوجود؛ مما يُخَوّل للمتلقّي صلاحية تأويله على منهج التفكِيكيّة، وإعادة التشكيل مرة أخرى، والدخول في دائرة كلامية مُفرَغة.

هذه القراءات الدخيلة على الثقافة العربية، والتراث الإسلامي إن صلحت في تأويل نصوص الأمم المنقطعة عن الوحي لا تصلح في تناول نصوص اللغة العربية التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالوحيين الكتاب والسنة.

وإذا كانت البلاغة التقعيدية وقفت عند حدود الجملة، وما يعتريها ويطرأ على صياغتها من تحولات، وتخطّت دراسة الجملة –على استحياء– إلى دراسة الجملتين في ضوء علاقة الاتصال أو الانفصال بحرف الواو خاصة ،كما في باب الفصل والوصل فإن الواجب على المهتمين بالدرس البلاغي اليوم أن يكونوا على وعي بخطر الانعزال عن المحيط الثقافيّ من حولنا الذي أولَى النصّ عناية وفاعلية كُبرى، ومن هنا تكون الرؤية الجادة للدرس البلاغي حين نُوَلّي وجهنا شطرَ النص بكليّته –دون أن نغفل بحث البلاغيين في إطار الجملة– باعتباره بناء فنيّا كاملا منسجم الأجزاء، لا ينفصل فيه جزء عن كلّ، مع مراعاة الظروف والملابسات والخصوصيات والاعتبارات السياقية التي تحفّ النص، وتوجّه دلالته ومقصديته، وانعتاق البلاغة من هذا الأفق الضيق المحدود إلى مجالات رحبة مترامية الأطراف.

ولا ينبغي أن نستسلم للبلاغة التقعيدية، ونبدئ ونعيد فيها، بل علينا أن نعيد للبلاغة عهدها ومجدها، بالنظر في قواعدها والعمل على تجديد بحوثها، وتخليصها من شوائب الجدل والفلسفة، وتنقية شواهدها من الأمثلة الافتراضية، والنماذج الصناعية وإعادة النظر في ترتيب أبوابها، وجمع المفترق منها، وضم النظير إلى النظير جنبا إلى جنب، وتخليتها من المباحث العقيمة والإقلال من كثرة الأقسام والفروع، وتحليتها بالنصوص الأدبية العالية المتنوعة، والتنبيه على مكان الذوق، باعتباره ركنا مكينا في الحكم على جودة الكلام وبلاغته.

ولا ننكر أن معظم الذين برعوا في تقنين البلاغة، ووضعوا فيها المختصرات والشروح أعاجم، أو غلبت عليهم ثقافة المنطق والكلام والفلسفة، غير غافلين خصوصية علم البلاغة، وكونه من أهم علوم الجمال، قد يصعب حصره في قواعد وقوانين صارمة كقوانين الفلسفة والمنطق.

وما دعوة الإمام محمد عبده في العصر الحديث إلى بعث عبد القاهر الجرجاني من جديد إلا الإحساس بخطر هيمنة الجمود والركود الفكري، والاستكانة إلى هذه القواعد الحاسمة، مما أضاع الذوق وأوْدى بحياة الفن.

وأصون نفسي عن أن يَحمِلَ أحدٌ كلامي على التقليل من شأن العلماء الأعلام، وجهودهم المحمودة في الجمع والترتيب والاجتهاد في التبويب، وخدمة التراث العربي الإسلامي، فهم القدوة في هذا الفن لا شك في ذلك، لكن هذا لا يمنع من أن ننبه على أوجه الضعف والقصور، وليس لزاما علينا أن نحتج بجميع مقولاتهم، ونأخذ كلامهم مأخذ الكلام المعصوم مع مراعاة تقدم الزمن، ومواكبة التغيرات، وسنن التجديد والتطور التي فطر الله الناس عليها.

وإذا كان الإمام عبد القاهر نفسه قد أحدث ثورة هائلة بفتح آفاق البحث النقدي والبلاغي من الثنائية القاصرة – أعنى اللفظ والمعنى وما جرى مجراهما – التي هيمنت على العقلية الثقافية ردحا من الزمن فاهتدى

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

إلى بلاغة النظم والضمّ والتأليف والعلاقات، فإن الواجب على العلماء أن يمدوا الفكرة الأصيلة بما يُغذيها وينمّيها ويمنحها الحيوية والجدة والابتكار، لكن الواقع يشهد بخلاف ذلك، فقد عقمت العقول عن إنتاج الجديد زمنا طويلا، حتى أحسّ نفرٌ من العلماء المعاصرين بهذا الركود، ونبهوا على ضرورة الخروج من ضيق النظر في حدود اللفظ والمعنى والجملة إلى الرؤية البلاغية التي تنظر في سياق النص الكليّ باعتبار النص ممثلا لفكرة كلية مترابطة ومنسجمة، لا يمكن تفتيتها إلى ذرّات منفصلة عن عالم المبدع، ووجدانه الحي النابض.

بلاغة التقعيد قد نُنصفها حين ننظر إليها من جهة دراستها للأسلوب العربيّ في إطار البنية والتركيب، بينما عند الحديث عن السياق والمقام والمطابقة والحال نجد شُحّا ونضوبا في المعالجة النصيّة، بسبب المبالغة والإغراق في الاجتزاء والاستدلال على القاعدة فهي الغاية والمقصد عندهم دون اعتبارات أخرى.

السياق الذي تحدّث عنه التقعيديون محدود ضيّق لا يتجاوز غالبا السياق اللغوي المحكوم بالنظْم وقانون التأليف النحوي بينما أولى الحداثيون السياق أهمية كبرى، وأصبح يتسع لمفهوم السياق الشمولي، لكل ما يتصل بالنص، وما يحفه من ظلال كالسياق النفسي والاجتماعي والثقافي والديني والوجدانيّ ونحو ذلك.

الشواهد المبثوثة في تضاعيف المصادر البلاغية في مرحلة التأليف لا تعدو الجملة والبيت والبيتين في أحسن الأحوال، مما أضعف بلاغة التلقي، وتأويل النص الشعري، وغيره من أنواع الخطاب، وقد جاء تأويلا ضعيفا قاصرا عن القراءة المثلى التي تبعث الحياة في النص، وتجدّد فيه ماء الحياة وطراوتها.

المصادر والمراجع

١- الأصول في النحو ابن السراج، تحقيق/ عبد الحسين الفتلي ط الأولى ١٩٧٣مطبعة النعمان، النجف الأحمر.
٢- إيضاح الإيضاح لجمال الدين الآقسرائي علم المعاني. بدون.
٣- الإيضاح شرح وتحقيق عبد المنعم خفاجي مكتبة المعارف ط١ ١٤٢٦ه/٢٠٠٦م.
٤- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصّيّة د. جميل عبد المجيد الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م
٥- بنية اللغة الشعرية كوهن. جان ترجمة محمد الولي ومحمد العمري دار توبقال للنشر المغرب ط١ ١٩٨٦م
٦- البيان والتبيين تح/ عبد السلام هارون مكتبة الخانجي ط٧ ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
٧- تأويل الشعر قراءة أدبية في فكرنا النحوي د/ مصطفى السعدني منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٢م.
٨- التفسّح في اللغة رواية أبي الحسين بن سفيان النحوي، بدون بيانات.
٩- الحداثة عند عبد القاهر د. محمد عبد المطلب الشركة المصرية العالمية للنشر ١٩٩٥م.
١٠-حلية المحاضرة للحاتمي تح/ د. جعفر الكتاني/ دار الرشيد للنشر/ العراق ١٩٧٩م.
١١-الحيوان للجاحظ تح/ عبد السلام هارون ط٢ ١٣٨٤هـ/١٩٥٦م.
١٢-الخصائص لابن جني تح/محمد على النجار دار الكتب المصرية المكتبة العلمية.
١٣-دفاع عن البلاغة أحمد حسن الزيات نشر عالم الكتب القاهرة ط٢ ١٩٦٧م.
١٤-دلائل الإعجاز قرأه وعلق عليه محمود شاكر مكتبة الخانجي ط٥ ١٤٢٤ه/٢٠٠٤م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

١٥-ديوان أبي تمام فسر ألفاظه اللغوية محيي الدين الخياط بدون تاريخ.
١٦-ديوان العباس بن الأحنف شرح وتحقيق عاتكة الخزرجي/ القاهرة/ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٣ه/١٩٥٤م
١٧-ديوان العجاج رواية عبد الملك الأصمعي شرحه وعنى بتحقيقه د/ عزة حسن دار الشرق العربي بيروت لبنان ١٤٢٦ه/١٩٩٥م
١٨-ديوان النابغة الذبياني تح/ الطاهر بن عاشور نشر الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية الجزائر.
١٩-ديوان امرئ القيس جمع وتحقيق حسن السندوبي دار إحياء العلوم بيروت ط١ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م
٢٠-ديوان جميل بثينة تقديم بطرس البستاني دار بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٢١-ديوان شعر بشار بن برد جمعه وحققه السيد بدر الدين العلوي دار الثقافة بيروت ط١٩٨١م.
٢٢-شرح أبيات سيبويه للسيرافي تح د/ محمد على الريّح هاشم راجعه طه عبد الرؤوف سعد ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
٢٣-شرح المفتاح للمؤذني (مخطوط) جاري العمل على تحقيقه د. هشام البلتاجي
٢٤-شروح التلخيص ط دار الكتب العلمية/ بيروت/ لبنان.
٢٥-الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه د. محمد النويهي الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة
٢٦-عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية أحمد أحمد بدوي سلسلة أعلام العرب وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦٠م.
٢٧-قانون البلاغة في نقد النثر والشعر للشاعر الأديب أبي طاهر حيدر البغدادي المتوفى (٥١٧هـ) المجمع العلمي بدمشق ج١ مجلد٧ ١٩٢٧م/١٣٤٥هـ.
٢٨-قصة الفلسفة ولِ دْ يورانت مكتبة المعارف بيروت. *ط٦ ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.*
٢٩-الكتاب لسيبويه تح/عبد السلام هارون ط القاهرة مكتبة الخانجي ط٣
٣٠-الكشاف دار المعرفة بيروت لبنان ١٤٣٠ه/٢٠٠٩م ط٣ (مجلد واحد).

٣١- الكليات أبو البقاء الكفوي تح/عدنان درويش ومحمد المصري مؤسسة الرسالة بيروت ط٢/١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٣٢- اللغة العربية معناها ومبناها د. تمام حسان الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١٩٨٧م.
٣٣- معاني القرآن وإعرابه للفراء تح/ أحمد يوسف النجاتي وآخرين الدار المصرية للتأليف والترجمة ط١.
٣٤- مغنى اللبيب لابن هشام الأنصاري تح/ محمد محي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية صيدا بيروت ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٣٥- مفتاح العلوم تح/ د. أكرم عثمان يوسف منشورات جامعة بغداد ط١ مطبعة دار الرسالة بغداد ١٤٠٢ه/١٩٨٢م
٣٦- مناهج تجديد للشيخ أمين الخولي.ط١ دار المعرفة ١٩٦١ م.
٣٧- نظرية اللغة في النقد العربي د/عبد الحكيم راضي المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ط٣/٢٠٠٣م.
٣٨- نظرية المعنى في النقد العربي د. مصطفى ناصف دار الأندلس بيروت ١٩٦٥م.
٣٩- النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ط٥ دار المعارف
٤٠- الوساطة لعلي بن عبد العزيز الجرجاني تح/محمد أبو الفضل إبراهيم والبجاوي المكتبة العصرية ط١ ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة
١.	ملخص	٨٥٩٥
٢.	Abstract	٨٥٩٦
٣.	على سبيل التقديم	٨٥٩٧
٤.	الفصاحة والبلاغة	٨٦٠٦
٥.	المفهوم الاصطلاحي للبلاغة	٨٦١١
٦.	التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة	٨٦١٣
٧.	الإسناد	٨٦١٦
٨.	الجملة الخبرية بين جمود المنطق ورحابة الاستعمال	٨٦١٨
٩.	الخبر وحال المخاطب	٨٦٢٠
١٠.	أحوال الإسناد (المسند إليه ـ المسند)	٨٦٣٤
١١.	القصْر	٨٦٤١
١٢.	الإيجاز والإطناب	٨٦٤٣
١٣.	باب الوصل والفصل	٨٦٥٣
١٤.	الإنشاء	٨٦٦٠
١٥.	الخاتمة	٨٦٦٤
١٦.	المصادر والمراجع	٨٦٦٩
١٧.	فهرس الموضوعات	٨٦٧٢

تم بحمد الله